

موسوعة نداءات

القرآن

نداء العبادة

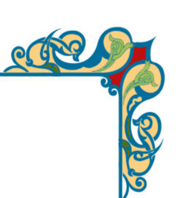
نداء العبادة

محاضرات

الشيخ محمود نعمة الجياشي

بقلم

الشيخ علي البحراني

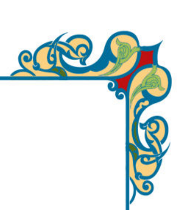



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾.

آل عمران: ١٩٣.





التقريض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي شرّفنا بنداء ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليقرع أسماع قلوبنا وينير بصائر نفوسنا تنبيهاً لنا من رقدة الغافلين ليخرجنا من ظلمات العالم الأدنى إلى نور العالم الأعلى وأفضل الصلاة وأتم السلام على المنادي برسالته الخاتمة التي دعانا فيها لما يحيينا عبده المنتجب ورسوله المصطفى محمد بن عبد الله وعلى آله الأئمة الهداة الميامين وعترته الطيبين الطاهرين.

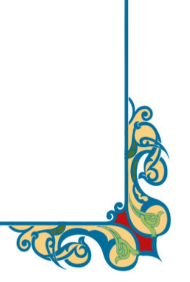
وبعد ..

هذا هو الجزء الأول من الأبحاث القرآنية التي ألقيناها على مجموعة من الأخوة الفضلاء المحصلين في الحوزة العلمية الشريفة أيام الأحد من كل أسبوع ، والتي كانت تدور حول موضوع نداءات القرآن ، وقد قام سماحة الأخ العزيز الشيخ الفاضل علي البحراني دامت توفيقاته بتقرير هذا البحث الذي كان مخصصاً لنداء العبادة وإخراجه بهذه الصورة الماثلة بين يدي القارئ الكريم.

وإذ أبارك له جهوده المميزة شاكراً لـه سـعيه الـدؤوب في متابعة وإنجـاز هـذا البحـث أدعـو الله العـلي القـدير أن يوفقـه للاستمرار في خدمة معارف القـرآن الكـريم وأن يكـون جهـده المبارك هذا ذخراً لنا في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلَّا من أتـى الله بقلب سليم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمود الجياشي
٩ شوال المكرم ١٤٣٩
النجف الأشرف





المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي دلع لسان الصباح بنطق تبلجه وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه .. وصلّ اللهم على الدليل إليك في الليل الأليل والماسك من أسبابك بحبل الشرف الأطول وعلى آله الأخيار المصطفين الأبرار.

وبعد:

حينما يكون الحديث عن مضامين القرآن فلا مناص لنا من أن نعترف أولاً بالعجز عن تقييم القرآن حق تقييمه والعجز عن استيعاب جوانب عظمته .. وإنما نكتفي بما نطق به تلميذ القرآن والمدرك لأسراره أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول بعد ذكر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه ، وسراجاً لا يخبأ توقده، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهجاً لا يضل نهجه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه ، وتبياناً لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه ، وعزاً لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذل أعوانه.

لازالت الحوزة العلمية المباركة في النجف الأشرف تفيض

علينا بعلومها ومننها .. ومن هذه الإفاضات موسوعة نداءات القرآن التي يعود أصلها إلى المحاضرات القرآنية التي ألقاها سماحة الشيخ محمود الجياشي دامت توفيقاته على مجموعة من طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف والتي جاءت منسجمة مع الوجدان مخاطبة عقل الإنسان .. خصوصاً ونحن في هذا العصر الذي أضحينا فيه بأمس الحاجة للعودة إلى مضامين القرآن رسالة الله الخالدة الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إنَّ هذه الأبحاث – كما عبّر شيخنا الأستاذ – تأتي أداء للتكليف الشرعي والأخلاقي والمعرفي تجاه القرآن الذي دعا الإنسانية كافة إلى سلوك طريق عبادة الله الواحد الأحد وترك كل أنواع الشرك والعبودية لغير الله سبحانه.

تجدر الإشارة إلى أن هذه البحوث ابتدأ إلقاؤها أسبوعياً في مرقد الشهيد السعيد السيد محمد الصدر ونجليه (قدست أسرارهم) ثم انتقلت إلى مدرسة دار العلم داخل الحوزة العلمية الشريفة مع حضور ثلة من الفضلاء من طلبة البحث الخارج الأمر الذي جعل هذه البحوث أكثر دقة وعمقاً.

وقد بلغ البحث في موضوع العبادة أربعة عشر محاضرة مثلت النداء الأول من نداءات القران وهو نداء العبادة التي هي

غاية خلقنا وسر وجودنا في هذا العالم .

وبتوفيق الله سبحانه تم تقرير هـذه المحـاضرات وجعلهـا أربعة عشر مبحثا تناولت موضوع العبادة مـن خـلال إشـارات وتأملات لطيفة معمقة. وبسبب تنوع الأبحاث ومضامينها فقـد قمنا بتثبيت بعض العناوين الفرعية في كل مبحـث تـسهيلاً عـلى القارئ الكريم ... ولكي يكون هذا الكتاب المدون تـام الفائـدة فقد أضفنا بعض الأبحاث التفـسيرية والـشواهد العلميـة التـي أخذناها من شـيخنا الأسـتاذ خـارج الـدرس إضـافة الى إعـادة صياغة بعض عبارات البحث بما يتلاءم مع الأبحاث المكتوبة.

وفي ختام هـذه المقدمـة المختـصرة لا يـسعني إلا أن أقـدم شكري واعتزازي لشيخنا الأستاذ الجياشي دام توفيقه لما ذكّرنا به من كتاب الله والذكرى تنفع المؤمنين.

وأخيرا أقول : ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن أمنوا بربكم فآمنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار.

علي ناهي البحراني

٧ شوال المكرم ١٤٣٩

جوار أمير المؤمنين وسيد الموحدين علي بن أبي طالب سلام الله عليه



بحث تمهيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين... وصلى الله على خير خلقه
محمد وآله الطيبين الطاهرين

● **هجر القرآن**

نشرع في هذا البحث القرآني - بعون الله تعالى وتوفيقه- أداء للتكليف الشرعي والأخلاقي والمعرفي تجاه القرآن الكريم..

ويعتبر هذا البحث استمراراً لبحوث سابقة كانت بمثابة المقدمات المنهجية والعلمية لهذا الموضوع.

وقد تحدثنا هناك حول موضوع (هجر القرآن) وما معنى أن يكون القرآن مهجوراً، إذ قد يفهم من عدم (هجر القرآن) معنى عرفي منتشر بين المتشرعة وهو لزوم قراءة شيء من القرآن الكريم يومياً أو أسبوعياً أو شهرياً لكي لا يتحقق الهجر...

فمن كان عنده مصحف أو أكثر في البيت ولكي يخرج من قضية هجر القرآن.. فيقرأ مرة في هذا المصحف.. وفي الأسبوع

الآخر مثلاً يقرأ في المصحف الآخر.. وهكذا.

إن تفسير (الهجر) والابتعاد عنه بهذا المعنى البسيط يعتبر هجراً للقرآن بمعنى من المعاني العميقة.. أي أن التعامل مع رسالة الله الخاتمة بهذه الطريقة يعدّ هجراً لها حقيقة، لأن القرآن لم ينزل إلى هذا العالم وهذه النشأة لكي نتعامل معه بهذا الأسلوب فنفتحه مرّة أو مرّتين في الأسبوع أو الشهر أو السنة!! ونقول إننا ما هجرنا القرآن! إن هذه الطريقة تعتبر بمستوى من المستويات هجراً للقرآن لأنها على خلاف الهدف الذي أنزل من أجله القرآن.

القرآن الكريم رسالة السماء إلى عالمنا... وهو وصفة الدواء الحقيقية التي نصل من خلالها إلى الشفاء الحقيقي ونيل السعادة والكمال الذي ننشده في مسيرة وجودنا الطويلة.

لأن هذا العالم مخلوق لله سبحانه وتعالى، والله هو العالم والمحيط بالمصالح والمفاسد وطرق الصلاح والفساد والكمال والنقص والضرر والنفع الموجودة في هذه النشأة.. فهو المشرع وصاحب الرسالة التي يجب أن تطاع فيه...

وقد مثلنا لذلك في بحوث سابقة بوصفة الدواء التي يكتبها الطبيب للمريض.. فهل يمكن للمريض أن يأخذ هذه

الوصفة ويجعلها على رفوف المكتبة!! أو يطبعها بطبعة مزّينة مذهبّة ويقول أنا أبقى أقرأ هذه الوصفة واحترمها لأني أحب الطبيب الذي كتبها مثلاً؟!! بالطبع كلا! بل لا بد عليه أن يذهب ويأخذ الدواء من الصيدلية يتناوله حسب توجيهات الطبيب المكتوبة وإلا سيفتك به المرض وقد يؤدي ذلك إلى موته وهلاكه.

القرآن الكريم بوصفه الرسالة الخاتمة هو وصفة إلهية من ميزاتها أنها (خاتمة) (نهائية) ليس بعدها وصفة! وهي التي تحدد المصير النهائي للإنسان إلى الأبد.. ومن هنا لا يمكننا التعامل مع القرآن بتلك الصورة والطريقة التي ذكرناها.. بناء على ذلك القرآن مظلوم.. مهجور بيننا نحن المسلمين.. المخاطبين بهذه الرسالة السماوية..

● شعورنا تجاه النداء الإلهي في القرآن

استناداً لذلك سيكون موضوع البحث في هذه المحاضرات هو (النداءات الإلهية) الموجودة في القرآن.. بالرغم من أن القرآن كله نداء إلهي.. ولا بد أن نتعامل مع كل آية قرآنية على أنها نداء إلهي موجه إلى الإنسانية.. لكن توجد في القرآن آيات خاصة جاءت بصيغة النداء كما في قوله تعالى في عشرات

الآيات (يا أيها الناس... يا أيها الذين آمنوا... يا أيها الإنسان...) إن الالتفات الحقيقي إلى هذا النداء الإلهي سيعطي للإنسان شعوراً خاصاً تعجز عن وصفه الكلمات... بمعنى أن الله سبحانه وتعالى بنفسه ينادي الإنسان! فما هو شعورك لو سمعت مباشرة أن الله يناديك.. ويقول لك، يا فلان نريد منك كذا وكذا؟!!

إن علاقتنا بالنداءات الإلهية التي نتلوها في القرآن يومياً لا بد أن نستحضر معها هذا الشعور النفسي والقلبي بأن الله سبحانه ينادينا ويتكلم معنا مباشرة، فكيف سيكون جوابنا معه؟

يقول سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر قدس سره في إحدى خطب الجمعة: أحبائي عندما يقول لنا الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بماذا ينبغي أن يكون الجواب؟ طبعاً يكون بالإيجاب. نعم يا ربّي، لبّيك يا ربّي) (أنا عبدك وابن عبديك يا ربي)[1].

ومن المؤكد أننا قبل ذلك نتلو هذه الآيات ونقرأها مئات المرات ولكننا لا نستشعر عظمة النداء الإلهي في قلوبنا، إذ لو نادانا شخص له منزلة كبيرة، رئيس دولة مثلاً.. ويقول لك: يا

---

(١) الجمعة: ٣٥.

فلان! وأنت لا تلتفت إليه بالرغم من أنك تسمعه، فهل ذلك صحيح؟! والحال أننا نقرأ القرآن ونسمع النداء الإلهي، لكن الحالة العامة والغالبة أننا لا نجيب بـ(نعم) فنقرأ مثلاً: ﴿وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾ [1] أو ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ونمر عليها مروراً بدون أي استجابة لهذا النهي الإلهي عن هذه الأمور.. ثم نعود ونقرأها مرّة أخرى وأخرى عندما نتلو القرآن في شهر رمضان أو غيره.. ولكن دون استجابة... في حين أننا لو أدركنا حقيقة وعظمة النداء الإلهي الموجه إلينا لكان علينا التلبية والطاعة والامتثال لأوامر الله وإجابة لندائه.

ومن هنا لا بد أن يتعامل الإنسان بطريقة أخرى مع النداءات الإلهية غير ما هو متعارف بيننا نحن المتشرعة.

وقد ركز القرآن الكريم على استعمال حرف النداء (يا) والذي ابتدأت به جميع الآيات الموجهة إلى المؤمنين ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ والموجهة إلى الناس جميعاً.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

وقد قال أهل اللغة أن حرف النداء (يا) يستعمل لنداء البعيد والتنبيه على أمر مهم.

فعندما نتكلم مع شخص في موضوع ما مثلاً، سوف

---

(١) الحجرات: ١٢.

يكون لنا طريقتان:

الأولى: أننا نذكر له موضوع الكلام وتفاصيله مباشرة.

الثانية: أننا نناديه، ونقول له أولاً: يا فلان! ثم نذكر له موضوع الكلام.

وهذا النداء يدل على أهمية الموضوع الذي يراد إيصاله إلى السامع أو المنادى.

استناداً لذلك يمكن أن نطرح السؤال التالي:

لماذا استعمل القرآن الكريم أسلوب النداء بحرف (يا) الذي ينادى به البعيد كما في الآيات التي تبدأ بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أو ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾؟

الجواب: أن الوجه في استعمال أسلوب نداء البعيد هو أن الإنسان الموجود في هذه النشأة، ونقصد بها عالم الشهادة، وعالم الدنيا، يكون بعيداً عن مصدر الكمال الحقيقي، أي المصدر الإلهي.. بعيداً عن عالم الغيب وعالم الملكوت والنور... ومن المؤكد أن عالم الدنيا هو من العوالم السافلة بالنسبة لعوالم الخلق والتكوين والوجود، بل هو أدنى هذه العوالم، ومن هنا وردت الآيات القرآنية التي تقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[1]..

---

(١) فاطر: ١٠.

فمسيرة التكامل والصعود نحو الله سبحانه وتعالى تفرض أن نكون في عالم متدني وثم نصعد منه نحو الأعلى، فعالم الدنيا من الناحية الرتبية والوجودية يعتبر من أدنى العوالم، فإذا أراد الله سبحانه أن يكلم الإنسان الخليفة الموجود في عالم الدنيا والمفروض أنه من جهته الدنيوية بعيد عن مصدر الكمال والنور، سوف يناديه ويقول : يا أيها الإنسان، يا أيها الناس يا أيها الذين آمنوا.. فيعتبره بعيداً من الناحية المعنوية.. وحيث أن القرآن والرسالة السماوية موجهة للإنسان في هذا العالم.. فهو ينادي الإنسان لكي لا يضيع في عالم المادة وظلماتها ويهلك بانقطاعه عن مصدر الكمال الحقيقي. فالله سبحانه وتعالى ينادينا بالتكاليف وقضايا الخلق والعقيدة والأخلاق والتكوين والعبادات والمعاملات جميعاً..

وهنا التفاتة أخرى يجدر التنبيه عليها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ إذ غالباً يأتي المنادى بصيغة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فالله سبحانه وتعالى عندما ينادينا فإنه يختار هذا الوصف وينادينا به ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على تشريف المنادى، أي أن الله المنادي قادر على ذكر صفة أخرى للإنسان يناديه بها، لكنه اختار صفة الإيمان تشريفاً للإنسان المنادى

والمقصود بالنداء... أي أيها الإنسان إنني أناديك وأدعوك من جهة إيمانك.. وهي الجهة النورانية في وجود الإنسان... وبها يستطيع تلقي النداءات الإلهية القادمة من العالم العلوي.. عالم النور والكمال والسعادة الحقيقية.

● **النداء في اللغة والقرآن**

النداء في اللغة يعني الدعاء بأي لفظ كان، أي أنك عندما تنادي شخصاً وتقول له (يا فلان) فإنك في الحقيقة تدعوه، أي أنه طلب واستحضار يراد منه إقبال المدعو على الداعي ليتمكن من توجيهه، وللنداء حروف مخصوصة في اللغة قد تصل إلى ثمانية حروف أشهرها استعمالاً هو حرف (يا) كما في الآيات القرآنية التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ و ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾.

وقد ذكر أهل اللغة أن حرف (يا) يستعمل لنداء البعيد، والتنبيه على أمر مهم، فعندما نريد التحدث مع شخص في موضوع ما مثلاً، يوجد أسلوبان: الأول: أننا نذكر له موضوع الحديث وتفاصيله مباشرة، والثاني: أننا نناديه ونقول له أولاً: يا فلان! ثم نذكر له موضوع الحديث، والتكلم بالأسلوب الثاني باستعمال النداء يدل على أهمية الموضوع الذي يراد إيصاله إلى

السامع أو المنادى.

ومن المعلوم أن موضوع (النداء) له جهات عديدة ومختلفة من الناحية العلمية فتارة يبحث النداء في علم النحو.. وتارة في علم اللغة.. وأخرى في علم البلاغة.. وفي الشعر والأدب.. ومن المؤكد أن هناك بحوث موسعة عن النداء في جميع هذه العلوم لسنا بصدد التعرض لها في هذه المحاضرات، وإنما المقصود هنا هو (النداء) في القرآن والذي سيكون محوراً أساسياً في هذه البحوث.

ويمكن تصنيف النداءات القرآنية بحسب الموضوعات التي تحدثت عنها حسب ما ذكره بعض الباحثين، إلى ما يلي:

- **تصنيف النداءات القرآنية**

١. نداء القرآن للتذكير بالنعمة وما أصاب الذين رفضوا قبول دعوة الحق من أنبيائهم، كقوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ**﴾[1].

٢. الدعوة إلى التزام أحكام الإسلام وعدم الاعتداء، وتبيان ما اشتمل عليه التشريع الإسلامي، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ**

(١) البقرة: ٤٠.

وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾(1).

٣. تقرير وحدانية الله وأنه الحي الواحد الذي لا يدركه الفناء، وله الهيمنة والقدرة النافذة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(2).

٤. تحذير المؤمنين من وسائل المنافقين وخداع اليهود والمشركين، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(3).

٥. الدعوة إلى التقوى والترابط والاعتصام بحبل الله، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(4).

---

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) آل عمران: ٢٦-٢٧.

(٣) آل عمران: ١٠٠.

(٤) آل عمران: ١٠٢-١٠٣.

٦. الدعوة إلى الصبر واحتمال الأذى بالقول والعمل الذي هو سبب الفلاح والعزة والسمو، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(١)].

٧. التحذير من ولاية غير المؤمنين، وأن لا إيمان ولا صلة بالله مع تولي الكفار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[(٢)].

٨. الوفاء بالعقود، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[(٣)].

والعقود جمع عقد، وهو ما يلتزمه المرء لنفسه أو لغيره، وقد يكون شيئاً فطرياً تدعو إليه الطبيعة، وقد يكون شيئاً تكليفياً تدعو إليه العقيدة، وقد يكون شيئاً عرفياً يدعو إليه الالتزام والتعاهد، والعقد العرفي أي المتعارف عليه من عامة الناس يكون بين الفرد والفرد كما في البيع والزواج وغيرها مما تعارف عليه الناس من وجوه الاتفاقات. وكلمة (عقود) في الآية

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

(٢) آل عمران: ١٤٩-١٥٠.

(٣) المائدة: ١.

المذكورة عامة، فإنها تنادي المؤمنين بالوفاء بالعقود فتشمل جميع العقود على اختلاف أنواعها، وتدخل فيها المعاملات والعهود وتحريم المحرمات والالتزام بحدود الله بوصفها داخلة في عقد بين الله ورسوله والذين آمنوا بالله ورسوله.

٩. المحافظة على شعائر الله وعدم إحلالها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ﴾(١).

١٠. الطهارة حين إرادة الصلاة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا﴾(٢).

١١. نداء القرآن للإيمان بالرسائل السابقة على عهد الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾(٣).

وهكذا ساوى بين الإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله والإيمان

---

(١) المائدة: ٢.

(٢) المائدة: ٦.

(٣) النساء: ١٣٦.

بالرسل السابقين عليه وعليهم السلام، وبين الإيمان بالكتاب الذي هو القرآن والموحى به إلى رسول الله، والإيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل أي الكتب السماوية السابقة، لأن رسالة الله في أي عهد وزمان تستهدف ما يريده القرآن وهو إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهداية ومن النقص إلى الكمال والسعادة، قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

١٢. إيثار الاستمرار في الترابط والبقاء على أساس القيم الإنسانية وليس على أساس العصبية الأسرية والقبلية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[٢].

١٣. توفير الاعتبار الإنساني والكرامة البشرية لكل فرد بغض النظر عن اللون والنسب والعرق والجاه والمال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ

---

(١) الأعراف: ٣٥-٣٦.

(٢) التوبة: ٢٣.

وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾[1].

١٤. التحذير والنهي عن الاعتماد على الظنون والشكوك والتجسس على الآخرين وذكرهم بما يسوؤهم في غيبتهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾[2].

ومن الواضح أن حفظ الاعتبار البشري والكرامة الإنسانية لكل فرد في المجتمع لا يحصل إلا بأن يمتنع الإنسان عن السخرية من غيره، وعن لقاء الآخرين بما يكرهون، ويبتعد عن تحديد مواقفه على أساس الظن وحده، والتجسس على الآخرين، والقول بشأنهم ما فيه نقص وعيب، لأن هذه الأمور تؤدي إلى تدمير العلاقات الطيبة التي يؤسسها الإيمان بالله في نفس الإنسان والمجتمع، قال تعالى في نداء قرآني آخر: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً

---

(١) الحجرات: ١١.

(٢) الحجرات: ١٢.

فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[1].

وفي هذا النداء الإلهي حفظ القرآن حرمة السكن الشخصي بعد أن أكد حرمة الشخص ذاتها في الآيات السابقة.

١٥. الدعوة إلى التفاضل بين الأفراد على أساس التقوى وليس على أي أساس مادي أو دنيوي آخر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

١٦. التأكيد على المسؤولية الشخصية والفردية تجاه الإيمان بالله سبحانه وتعالى وأن المنتفع والمتضرر الحقيقي من الإيمان وعدم الإيمان هو الإنسان نفسه.. وأن الأنبياء والمرسلين مهمتهم هي التبليغ وإيصال أسباب الهداية إلى الإنسان.. ويبقى الإنسان مسؤولاً في اختياره وإرادته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[3].

---

(١) النور: ٢٧-٢٨.

(٢) الحجرات: ١٣.

(٣) يونس: ١٠٨.

١٧. سرية اجتماع شخصين أو أكثر على الخير وحده وعدم الاعتداء على الآخرين، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[1].

فهذا النداء الإلهي ينهى عن الاجتماع على العدوان على الآخرين، والتآمر وتدبير الاعتداء على الناس، ويأمر على أن تكون سرية اجتماع شخصين أو أكثر متمحضة للخير والمصلحة العامة في المجتمع، وأما الاجتماع على الإثم والتآمر على الآخرين فهو سبب مباشر لهدم العلاقات الاجتماعية الطيبة التي يؤسسها الإيمان بالله.

١٨. التكافؤ في الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وبين عمل الإنسان من أجل الرزق وكسب العيش الحلال، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) المجادلة: ٩.

(٢) الجمعة: ٩-١٠.

إن هذه المقارنة بين عبادة الله سبحانه وذكره وبين الأمر بالانتشار في الأرض لكي نبتغي من فضل الله ورزقه تعطي صورة واضحة على اهتمام الرسالة الإلهية بجميع جوانب حياة الإنسان التي يتوقف عليها سيره وتكامله دنيوياً وأخروياً.

١٩. العدل والشورى والنهي عن اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾[١].

وكذلك يأمرنا الله سبحانه بالعدل في الشهادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للّهِ﴾ مقيمين لأوامره ومطيعين لها ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملكم بغض قوم بسبب كفرهم على عدم العدل نحوهم فتعتدون عليهم ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

ويأمرنا الله أيضاً بالعدل بين ما يفعله الإنسان، وما يتحدث عنه، وهو المعبر عنه بمطابقة القول للعمل، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ

---

(١) النساء: ١٣٥.

(٢) المائدة: ٨.

تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾[١].

٢٠. الرجوع بالخصومة في الرأي إلى المصدر الأصيل للدعوة الإلهية قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٢].

٢١. الحفاظ على النفس والنهي عن أكل المال بالباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾[٣].

٢٢. التأكيد على أن الاتجاه المادي، أي الذي يبني الحضارة الإنسانية والوجود الإنساني على المادة فقط هو عدو للحضارة الإنسانية وعدو دائم للإيمان بالقيم العليا، وأن هذا الاتجاه يجر الإنسان إلى مستوى الحيوانية والبهيمية والفساد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾[٤] و﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ

---

(١) الصف: ٢-٣.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ٢٩.

(٤) الممتحنة: ١.

أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾[١].

٢٣. التأكيد على وصف البنوّة لآدمعليه السلام، أي أن جميع أفراد البشر متساوون في أصلهم الإنساني والبشري، وهو رجوعهم إلى أب واحد هو آدم.

قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾[٢] و﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٣].

٢٤. التأكيد على الوصف بالمساواة في الأصل الإنساني وهو قريب من المعنى السابق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٤] و ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ﴾[٥].

٢٥. تبيان أن الإسلام دعوة للبشرية جمعاء في عقيدته وشريعته وعباداته ونظامه الأخلاقي، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ

---

(١) الممتحنة: ٢.

(٢) الأعراف: ٢٦.

(٣) الأعراف: ٣١.

(٤) النساء: ١.

(٥) الحجرات: ١٣.

آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[1].

فالإسلام حق ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ والحق ما تشهد به الفطرة التي لم تفسد، وتطمئن إليه النفوس التي لم تدنس، وتطيب به الحياة التي لم ينحرف أصلها عن الصراط المستقيم، والحق يتنوع إلى حق في العقيدة، وفي العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولدعوة الحق جوانب متعددة:

الدعوة إلى الإيمان بالله وتوحيده في العبادة والاستعانة هي دعوة إلى الحق، والدعوة إلى مكافحة الظلم والطغيان وإقرار العدل بين الناس هي دعوة إلى الحق، والدعوة إلى تطهير النفوس والمجتمعات من الفساد والتقاليد الضارة هي دعوة إلى الحق، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من موالاة الأعداء ونبذ المصالح الشخصية في سبيل الصالح العام هي دعوة إلى الحق.

٢٦. التأكيد على أدب المجالس، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللهُ لَكُمْ﴾[2].

٢٧. أدب تلقي الأخبار والتثبت منها وعدم الانجرار

---

(١) النساء: ١٧٤-١٧٥.

(٢) المجادلة: ١١.

وراء كل خبر نسمعه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾(١).

٢٨.التأكيد على سعة رحمة الله سبحانه وعدم اليأس من العفو والمغفرة، قال تعالى: ﴿يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ﴾(٢).

٢٩. التحذير من إغواء الشيطان ومكائده، قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾(٣).

٣٠. التأكيد على الدعوة إلى تقوى الله وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٤).

٣١. التأكيد على عدم تحريم الطيبات التي أحلّها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٥).

٣٢. تحريم الخمر والميسر، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) الحجرات: ٦.

(٢) الزمر: ٥٣.

(٣) الأعراف: ٢٧.

(٤) المائدة: ٣٥.

(٥) المائدة: ٨٧.

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

٣٣. عدم السؤال عما ترك الله بيان حكمه وتوسعة على عباده، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2].

٣٤. تحديد مسؤولية الإنسان تجاه نفسه أولاً من جهة الإيمان بالله سبحانه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

٣٥. نداء أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ... قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾[4].

٣٦. الدعوة إلى التوسط في الزينة والمأكل والمشرب، قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[5].

---

(١) المائدة: ٩٠.

(٢) المائدة: ١٠١.

(٣) المائدة: ١٠٥.

(٤) المائدة: ١٥.

(٥) الأعراف: ٣١.

٣٧. نداء المؤمنين بطاعة الله ورسوله، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[١].

٣٨. نداء المؤمنين إلى ترك الخيانة والابتعاد عن إفشاء الأسرار، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢].

٣٩. نداء المؤمنين بالثبات والأمر بذكر الله كثيراً، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٣].

٤٠. الدعوة إلى التوحيد في العبادة على لسان الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى على لسان صالح: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٤].

وعلى لسان شعيب: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٥].

وعلى لسان نوح: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[٦].

---

(١) الأنفال: ٢٠.

(٢) الأنفال: ٢٧.

(٣) الأنفال: ٤٥.

(٤) هود: ٦١.

(٥) هود: ٨٤.

(٦) المؤمنون: ٢٣.

٤١. نـداء الله للرسـولﷺ للرأفـة بنفـسه، وأن نـزول القرآن عليه ليسعد لا ليشقى، قال تعالى: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾[(١)].

٤٢. نداء الله إلى الرسل لأكل الطيبات وعمل الصالحات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[(٢)(٣)].

٤٣. نداء الذكر الإلهي الذي يؤكـد عـلى الإنـسان المـؤمن ويوجب عليه ذكر الله تعالى كثيراً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[(٤)].

٤٤. نداء العبادة الموجه للناس جميعاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[(٥)].

---

(١) طه: ١-٣.

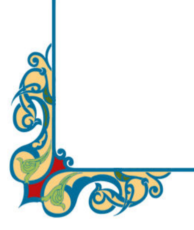
(٢) المؤمنون: ٥١-٥٢.

(٣) اقتبسنا هذا التصنيف للنداءات القرآنية مع تصرف يسير من كتاب النداء في اللغة والقرآن، د. أحمد محمد فارس، الطبعـة الأولى ١٩٨٩م. دار الفكر اللبناني، ص١٣٧ وما بعدها.

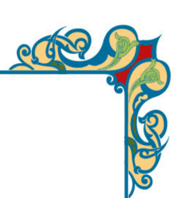
(٤) الأحزاب: ٤١.

(٥) البقرة: ٢١.

إلى غير ذلك من النداءات القرآنية التي تضمنت الإشـارة إلى موضوعات أخرى قد تكون فروعاً لما ذكرناه هنا أو تتـداخل معها في بعض المفاصل.





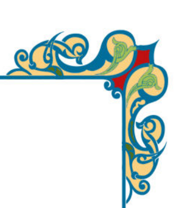


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

البقرة: ٢١

نداء العبادة



المبحث الأول

النداء الأول الذي نفتتح به بحثنا حول النداءات القرآنية هو نداء العبادة المستفاد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

● نداء العبادة موجه إلى البشرية جمعاء

من الواضح أن المحور الرئيسي في هذا النداء هو موضوع (العبادة) وهو نداء موجه لجميع الناس وليس لمجموعة خاصة أو للذين آمنوا فقط، فالله سبحانه وتعالى يوجه هذا النداء للبشرية جمعاء ويأمرهم بعبادته وحده لا شريك له.. بمعنى أنه يقول لهم: يا أيها الناس وحّدوا الله سبحانه وتعالى بالعبادة.. لا تعبدوا غيره.. اخرجوا من ظلمات الشرك والكفر وارجعوا إلى ربكم الذي خلقكم لعلكم تتقون.

● التركيز القرآني على العبادة وأنها غاية الخلق

ولا شك أن موضوع العبادة من الموضوعات الجوهرية في



(١) البقرة: ٢١.

عموم المعرفة الدينية وعلى مستوى جميع الرسالات السماوية. وحينما نراجع القرآن الكريم والسنة الشريفة نجد تركيزاً واضحاً على موضوع العبادة وحقيقتها وبيان آثارها في حياة الإنسان دنيوياً وأخروياً، إلى درجة أن الله سبحانه وتعالى جعل العبادة غاية للخلق، فقال: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[1].

إذ إن هذه الآية الكريمة تعطي دلالة واضحة على أن الغاية من خلق الجن والإنس حقيقة هي العبادة.. أي يكونون عابدين لله سبحانه وتعالى. ومن الواضح أيضاً أن الآية تدل على أن الجن مكلفون ولهم عبادة خاصة وغاية خلقهم أيضاً هي العبادة.. لكن موضوع عبادة الجن خارج عن موضوع بحثنا الآن إذ المقصود والمهم هو بيان تكليف أنفسنا ثم بيان تكليف الجن.. فنحن الضائعون المتحيرون في هذا العالم ونبحث عن طريق كمالنا وهدف حياتنا ومسيرتنا الوجودية..

أما الجن فلعّل لهم مرشدون ومراجع مصلحون يفسرون لهم معنى هذه الآية ويرشدونهم إلى عبادتهم الخاصة.

وبالعودة إلى مضمون الآية الكريمة نجد أن سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر (قدس الله نفسه الزكية) في كتابه

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(اليوم الموعود) وكذلك (تأريخ الغيبة الكبرى).. عندما ينظّر لحركة التاريخ والمجتمع الإنساني فإنه يستند إلى الآية المذكورة لإثبات أن الغاية التي يصلها المجتمع الإنساني والتي تمثل كماله الأعلى هي العبادة، بمعنى أن الإنسانية ستصل إلى يوم تكون كلها عابدة ويتحقق بذلك المجتمع المعصوم الذي يمثل اليوم الموعود بحسب النظرية الدينية والمعادلة الإلهية في إثبات حكمة الخلق وغاياته، ولأهمية وارتباط موضوع العبادة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ نذكر ما قاله السيد الشهيدقُدِّسَ سِرُّهُ حول هذه النقطة في كتابيه المذكورين آنفاً، من خلال عدّة نقاط.

قالقُدِّسَ سِرُّهُ:

النقطة الأولى: إن الله تبارك وتعالى خلق الخلق متفضلاً، ولم يخلقهم عبثاً ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم وهو غني عنهم، لأجل حصولهم على مصالحهم الكبرى ووصولهم إلى كمالهم المنشود، المتمثل بإخلاص العبادة لله تعالى، قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾. إذن فالغرض من الخليقة هو الحصول على هذا الكمال العظيم المتمثل بتوجيه العقيدة والمفهوم إلى الله عز وجل، وقصر السلوك على طاعته وعدله في

كل حركة وسكون، وإذا نظرنا إلى حقيقة هذا الكمال من جوانبه المتعددة، واستطعنا تحصيل الفكرة المتكاملة عنه، عرفنا الهدف الإلهي المقصود الذي أصبح هدفاً لإيجاد الخليقة:

الجانب الأول: إيجاد الفرد الكامل، من حيث إنَّ قصر الإنسان نفسه على التربية بيد الحكمة الإلهية الكبرى وتحت إشرافها وتدبيرها، يوجد فيه الإنسان العادل الكامل، الذي يعيش محض الحرية عن انحرافات العاطفة والمصالح الضيقة، والمساوق في انطلاقه مع انطلاقة الكون الكبرى إلى الله عز وجل.

الجانب الثاني: إيجاد المجتمع الكامل، والبشرية الكاملة المتمثلة من مجموعة الأفراد الذين يعيشون على مستوى العدل والإخلاص، والتجرد من كل شيء سوى عبادة الله تعالى، تلك العبادة التي تتضمن تربية الفرد والمجتمع، والارتباط بكل شيء على مستوى العدل الإلهي.

الجانب الثالث: إيجاد الدولة العادلة التي تحكم المجتمع بالحق والعدل، بشريعة الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وتكون هي المسؤولة الأساسية عن السير قدماً بالمجتمع والبشرية نحو زيادة في التكامل في الطريق الطويل غير متناهي الخطوات.

فهذا هو معنى العبادة المقصود في الآية، وكل ما كان على خلاف ذلك فهو تقصير في العبادة الحقيقية تجاه الله عزَّ وجل.

النقطة الثانية: إن الآية واضحة الظهور في أن الغاية الأساسية والغرض الأصلي من إيجاد البشرية هو إيجاد هذه العبادة الكاملة في ربوع البشرية أو إيصالها إلى هذا المستوى الرفيع، وذلك بقرينة وجود التعليل في قوله تعالى: ﴿**لِيَعْبُدُونِ**﴾ مع الحصر المستفاد من الآية من وقوع أداة الاستثناء ﴿**إِلَّا**﴾ بعد النفي حين قال عز من قائل: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾. إذن فهذا هو الهدف الوحيد المنحصر الذي لا شيء وراءه من خلقة البشر، المعبر عنهم بالإنس، وهذا الهدف ملحوظ ومخطط بشكل خاص منذ بدء الخليقة، ويبقى بطبيعة الحال مواكباً لها ما دامت البشرية في الوجود. وهذا بالضبط ما نعنيه حين نقول: إن الله تعالى لم يخلق البشرية لأجل مصلحته، فإنه غني عن العالمين، وإنما خلقهم لأجل مصلحتهم وأي مصلحة يريدها الله لعباده غير كمالهم ورشدهم وصلاحهم المتمثل بالعبادة المخلصة والتوجه إليه بالخيرات نحوه عزَّ وعلا.

النقطة الثالثة: إن الغرض الإلهي من خلق البشرية ما دام هو ذلك، إذن فلا بد أن يشاء الله تعالى إيجاد كل ما يحققه

والحيلولة دون كل ما يحول عنه... شأن كل غرض إلهي مهم... فإن الحكمة الأزلية حين تتعلق بوجود أي شيء، فإن تخلفه يكون مستحيلاً، وتكون إرادة الله تعالى متعلقة بإيجاده لو كان شيئاً آنياً فورياً، أو التخطيط لوجوده لو كان شيئاً مؤجلاً ومحتاجاً إلى مقدمات من الضروري أن توجد قبله. وقد برهنا في رسالتنا الخاصة بالمفهوم الإسلامي للمعجزة أن الغرض الإلهي المهم إذا تعلق بهدف من الأهداف، فإنه لا بد من وجود ذلك الهدف، ولو استلزم بوجوده أو ببعض مقدماته خرق قوانين الطبيعة، وإيجاد المعجزات، فإن القوانين الطبيعية إنما أوجدها الله تعالى في كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد الخلق، فإذا توقفت تلك الأغراض على انخرام تلك القوانين وحدوث المعجزات أحياناً أو في كثير من الأحيان كانت تلك القوانين قاصرة عن الممانعة والتأثير.

النقطة الرابعة: إننا نجد بالوجدان القطعي إن هذا الغرض الإلهي المهم الذي نطقت به الآية بالمعنى الذي فهمناه، لم يحدث في تاريخ البشرية على الإطلاق منذ وجودها إلى العصر الحاضر، إذن فهو باليقين سوف يحدث في مستقبل عمر البشرية بمشيئة خالقها العظيم، وهذه هي الفكرة الأساسية التي ننطلق فيها إلى

التسليم بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود[1].

ثم يقول: إن هذا المفهوم يعني بالتحديد إيجاد المجتمع المعصوم برأيه العام بل المعصوم بكل أفراده، فإن عمق العبادة وعمومها يقتضي هذا المعنى بالضرورة. إذن يمكن القول، بأن تكامل البشرية المستهدف بالتخطيط البشري العام هو إيجاد المجتمع المعصوم[2].

• ليس المقصود من العبادة العبادات الفقهية فقط بل كون حياة الإنسان كلها في صراط العبادة

ولا شك أن المراد بالعبادة التي هي غاية الخلق ليس هو العبادات المخصوصة في الشريعة فقط كالصلاة والصوم وغيرها.. بل المراد مطلق العبادات بمعنى أن تكون حياة الإنسان كلها في صراط العبادة والعبودية لله سبحانه.. حركاته.. سكناته.. تصرفاته شخصياً واجتماعياً وأخلاقياً وفكرياً ونفسياً.. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ بمعنى كونوا خاضعين له بكل وجودكم لأنه هو الذي خلقكم.. وليس هذا الخضوع والتذلل

---

(١) تاريخ الغيبة الكبرى: الشهيد السعيد آية الله العظمى السيد محمد الصدر، ص٢٥٣ وما بعدها.

(٢) اليوم الموعود بين الفكر المادي والفكر الديني، ص٥٣٥.

مختصاً بالصلاة أو الصوم أو غيرهما من العبادات الخاصة المنصوص عليها في الشريعة والفقه.. بل لا بد أن يكون الإنسان خاضعاً لله في كل مستويات وجوده. وهذا المعنى الواسع والشامل هو المراد في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ فالإنسان بجسده لا بد أن يكون عابداً وخاضعاً.. وبروحه لا بد أن يكون عابداً وخاضعاً.. وفي عقله كذلك... وكذلك في جميع مراحل وجوده.. يكون خاضعاً لله في الدنيا .. وخاضعاً لله في البرزخ.. وفي الآخرة.. لا فرق بين جميع هذه المراتب من ضرورة الارتباط بالله سبحانه... وقد أكدّ القرآن الكريم هذا المعنى الواسع للعبادة في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

ولا شك أن التسبيح عبادة فكل من في السماوات والأرض عابد مسبح لله سبحانه. قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾[2].

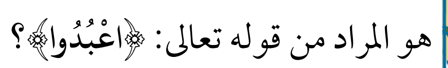
● **ما هي حقيقة العبادة؟**

من هنا ننتقل إلى الحديث عن معنى العبادة والعبودية، فما

---

(١) الحديد: ١.

(٢) مريم: ٣٩.



هو المراد من قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا﴾؟

وهذا السؤال يضعنا أمام حقيقة أخرى مثارة جداً في الأوساط العلمية والفكرية والنخبوية في السنين المتأخرة وهي: لماذا نعبد الله؟! فلعلّ أحدهم يقول: أن هذه العبادة والخضوع والتذلل المطلوب من الإنسان بهذا الشكل كان ضرورياً للإنسان عندما نزلت الرسالة السماوية قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة في ذلك المجتمع الذي يعيش في الصحراء ويتميز بقساوة القلب وجفاف الروح لأنهم بعيدون عن مصدر الإلهام الإلهي.. فيحتاجون إلى هذه العبادة التي تنتج خضوعهم وإطاعتهم لله سبحانه وتعالى.. أما الآن ومع تطور البشرية وتقدم الحضارة الإنسانية في مستويات عالية من الرقيّ والتقدم والتحضر الفكري والروحي والمدني فلا نحتاج إلى هذا اللون من السلوك العبادي.. فلماذا نركع.. أو نسجد؟ أو ننحني أو نمتنع عن الأكل والشرب؟! ومن المؤكد وجود أمثال هذه الإثارات والتساؤلات وكثيراً ما نسمعها هنا أو هناك.

● العبادة حقيقة تكوينية

وفي مقام الجواب عن هذا النوع من التساؤلات لا بد أن نعرف أن العبادة راجعة إلى حقيقة تكوينية في العلاقة بين الله

سبحانه وتعالى وبين الإنسان، وتتمثل هذه الحقيقة في أن العبادة والعبودية ترجع إلى أن الله سبحانه وتعالى (مالكنا).. فالعبد هو المملوك من الإنسان ومن كل ذي شعور، قال تعالى: ﴿**إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً**﴾ فهذه الآية الكريمة تؤكد أن جميع المخلوقات في السماوات والأرض تربطهم علاقة العبودية بالله سبحانه... فكل من في السماوات والأرض مملوك لله سبحانه بالملكية التكوينية.. والملكية التكوينية تختلف اختلافاً جوهرياً عن الملكية العرفية والعقلائية والاعتبارية،.. إذ نعني بالملكية التكوينية هي التسلط الوجودي للمالك على المملوك.. ولو أردنا أن نقرب هذا المعنى بشكل مبسط فإننا نضرب مثلاً في النفس الإنسانية والبدن.. إذ إن النفس متسلطة على البدن ولا يمكن لأي جارحة أو عضو من أعضاء البدن أن يخرج عن سلطة النفس واحاطتها، فالنفس مالكة لجميع قوى الإنسان وأعضائه بالملك التكويني الوجودي... وهذا المعنى يختلف عن الملكية العقلائية الاعتبارية المتحققة مثلاً بين البيت وصاحب البيت.. أو بين السيارة ومالكها الشرعي أو العقلائي.. فالمالك هنا غير مسلط بشكل مطلق على مملوكه.. فلو كان مالك السيارة في مكان ما وتم سرقة سيارته المركونة في الموقف فإنه لا يعلم

بهـذه الـسرقة ولا يعلـم مـاذا حـدث لـسيارته إلا أن يخـبره الآخرون... ومن هنا يظهر أن هذا النوع مـن المالكيـة لا يعطـي للإنسان المالـك التـسلط التـام والمطلـق عـلى مملوكـه.. بـل هـو متصرف ومتسلط عليه من بعض الجهات التي يعتبرها الشرع أو العقلاء.. والحال أن مالكية الله سبحانه وتعالى للإنـسان ليـست على هذا النحو أكيداً.. بل الإنسان عبد حقيقي لله سـبحانه لأنـه سبحانه مالكه بالملكية التكوينية.. ومسلط عليه تكويناً.. ولـيس للإنسان شيء أمام مالكه وخالقه.

ومن هنا يقول السيد الطباطبائي قدس سره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: فهو تعالى مالك عـلى الاطـلاق مـن غير شرط ولا قيد -باعتبار أن المالك العـرفي والعقلائـي مالـك ولكن بشروط وقيود معينة- فهناك حـصر مـن جهتـين، الـربّ مالك للإنسان ولا مالك له إلا هو سبحانه.. والعبد مقـصور في العبودية أي ليس له إلا أن يكون عبداً مملوكاً مطيعاً.

● الله سبحانه وتعالى مالك تكويناً

من هنا ينبثق السؤال التالي: كيف يكون الله سبحانه مالكـاً بهذا النوع من الملكية التي تقتضي العبودية بهذه الصورة؟

قال المحققون في جواب ذلـك: لأن الله خالقنـا.. فيكـون

مالكنا.. وبالتالي هو مولانا الحقيقي الذي تجب طاعته.. ولا بد للإنسان المملوك أن يحضر بجميع وجوده أمام مالكه الحقيقي.. أي لا يشذ شيء من الإنسان أمام الحق سبحانه.. وهذا هو معنى العبودية الحقيقية.. المستندة إلى أن الله سبحانه وتعالى خالقنا.. أي هو علّة وجودنا.. ومن الواضح فلسفياً أن العلّة متسلطة وجودياً على معلولها ومحيطة به تكويناً.. فالمعلول مملوك لعلته وجوداً.. فالإنسان أمام الله عز وجل ليس له من أمره شيء.. ولا يملك شيئاً من جهات وجوده.. بل الإنسان كله تحت سلطة علته وخالقه لأن الخالق مالك لا محالة، فيكون الإنسان المخلوق عبداً ويكون الله معبوداً.. وهذا البحث مرتبط ارتباطاً جوهرياً ببحث الأسماء الإلهية، إذ يكون الله خالقنا.. فهو مالكنا.. فهو مولانا الذي تجب طاعته.. وهذه المولوية الإلهية كما يبينها السيد الشهيد محمد باقر الصدرقدس سره حيث يقول: المولوية الذاتية الثابتة بلا جعل واعتبار والتي هي أمر واقعي وهي مخصوصة بالله تعالى بحكم مالكيته لنا الثابتة بملاك خالقيته وهذا مطلب ندركه بقطع النظر عن مسألة شكر المنعم الذي حاول الحكماء أن يثبتوا بها مولوية الله سبحانه ولزوم طاعته، فإن ثبوت الحق بملاك المالكية والخالقية شيء وثبوته بملاك شكر المنعم شيء آخر،

فإرادته التشريعية وأوامره ونواهيه لا بد أن تكون نافـذة فتجـب طاعته[1].

إذن لو تصورنا المالكيـة الثابتـة لله سـبحانه وتعـالى علينـا وخصوصاً على التصوير الذي يثبتـه صـدر الـدين الـشيرازي في الحكمة المتعالية من أن الإنسان المخلوق هو عين الفقر والحاجـة إلى خالقه وموجده.. فتكون علته الموجدة له مالكـة لـه بالملكيـة التامة المطلقة.. وما دام هذه العلة تعطيك الوجود.. فـلا بـد إذن لكي تحافظ على وجودك والحصول على كمالك أن تطيعه.. وهنـا تتولـد الطاعـة والانقيـاد والعبوديـة مـن المالكيـة المتولـدة مـن الخالقية.

والحمد لله رب العالمين

(١) بحوث في علم الأصول، السيد محمود الهاشمي، ج٤ ص٢٨١.



المبحث الثاني

قلنا في المبحث السابق إن الله سبحانه وتعالى محيط بالإنسان تكويناً لأنه خالقه وموجده وبالتالي يكون الإنسان حاضراً تجاه وجوده عند الله سبحانه لا يشذ منه شيء ولا يغيب منه شيء.. جسداً وروحاً وعقلاً وقلباً ونفساً... وهذا المستوى من العبودية والعبادة هو الذي تقتضيه مالكية الله سبحانه وتعالى للإنسان والمخلوقات جميعاً..

• العبادة الحقيقية هي الحضور الكلي أمام الله عز وجل

وفي هذا المجال ذكر السيد الطباطبائي قدس سره في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أن هذا المستوى من الحضور والارتباط بالله سبحانه وتعالى إنما يتم ويتحقق إذا لم يشتغل الإنسان بغير الله تعالى في عمله ولم يتعلق قلبه عند العبادة رجاءً للجنة أو خوفاً من النار.. بمعنى أن الإنسان الذي يتعلق قلبه برجاء الجنة أو الخوف من النار أثناء العبادة سوف لا يكون حاضراً كله عند الله سبحانه.. وإنما سيكون جزء من وجوده منشغلاً بالتفكير بالجنة أو الخوف من النار!! فتكون عبادته لهذا

الوجه أي الرجاء أو الخوف وليس خالصة لله سبحانه وتعالى.. فيكون ذلك منافياً لمقام العبودية الحقيقي والتام الذي تنتفي فيه الإنّية ويذوب فيه الالتفات إلى النفس.. وهذا المضمون هو الذي ورد في النصوص المنقولة عن أمير المؤمنين عليه السلام: إني ما عبدت الله خوفاً من نار أو طمعاً في جنة.. ولكني عبدتك لأنك أهل لذلك... لأن الخوف من النار والطمع في الجنة يقتضي أن يكون الإنسان ملتفتاً إلى نفسه الأمر الذي لا ينسجم مع الحضور التام والكامل والمنكشف أمام الله سبحانه وتعالى. وينبغي أن نشير هنا إلى أن الخوف من النار والطمع في الجنة لا ينفي ويبطل أصل العبادة بل هو عبادة أيضاً ومقبولة عند الله لكنها ليست الدرجة التامة التي ينبغي للإنسان الوصول إليها في علاقته بالله عز وجل، ومن هنا قال الإمام الصادق عليه السلام: (إن العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادات).

إذن فهذه الأنواع كلها عبادات لكن أفضلها هو النوع الثالث المستند إلى الحبّ (عبدوا الله حبّاً له) ومن الواضح أن

مقام الحب يقتضي أن لا يـرى الإنـسان لنفـسه أي وجـود أمـام حبيبه الحقيقي.. ولهذا كانت أرقـى أنـواع العبـادة وأكملهـا لأن العبد في هذا المستوى يكون حـاضراً بـتمام وجـوده أمـام محبوبـه وخالقه.. فهي عبادة الأحرار حقاً..

- **حقيقة القرب والبعد من الله سبحانه وتعالى**

ومن الجدير بالذكر هنا في بحث العبادة أن الإنسان عندما يبتعد عن مصدر الكمال والنور الحقيقـي ويكـون في عـالم الـدنيا الذي هو عالم متنزل عن عوالم الكمال العليا سوف تكون العبـادة سبباً تكوينياً لارتباطه بربّه وخالقه والتقرب منه سبحانه وتعـالى ومن هنا أشترط في الفقه أن العبادات لا تصح إلا بقصد القربة.. ولذلك يكون الرياء مبطلاً للعبادة من الأساس، ولتقريب حالـة الإنسان عندما يبتعد عن الله سبحانه وتعالى نذكر المثال التالي:

إن الماء القليل – فقهياً– عندما ينفصل عن مادته سوف لا يكون معتصماً وبالتالي سينفعل بملاقاة النجاسة ويكون متنجـساً كما هو واضح.. ويذكرون في الفقه أنه يتـنجس حتـى لـو كانـت النجاسة التي طرأته بمقدار رأس أبرة.. بسبب أنـه مـاء قليـل.. وأمـا المـاء المعتـصم والكثـير فإنـه لا ينفعـل بالنجاسـة بمجـرد ملاقاتها.. لأنه كثير متصل بمادته فيحـافظ عـلى طهارتـه.. ومـن

المعلوم أن الماء القليل المتنجس لا يطهر إلا باستهلاكه بماء كثير طاهر.. والإنسان عندما يوجد في عالم الدنيا يكون كالماء القليل الذي ابتعد عن مصدر مادته واعتصامه.. فإذا انقطع تماماً من الماء المعتصم سوف ينفعل بملاقاة النجاسة الدنيوية.. لأنه في نشأة الدنيا والمادة تحوطه النجاسات المعنوية فلو لم يكن له اتصال واعتصام سوف يتنجس لا محالة بل إذا استمر كذلك سوف يصل إلى الهلاك الحقيقي.. ومن هنا تأتي العبادة لكي تبقي الإنسان متصلاً بمصدر الكمال والنور الحقيقي.. ومعتصماً بالماء الحقيقي الذي جعلنا منه كل شيء حي.. ولا تنطفئ في وجوده نفحة النور والطهارة التي خلقها الله فيه.. ولا نقصد هنا بالعبادة العبادة الفقهية كالصوم والصلاة فقط.. بل إن كل حياة الإنسان ومواقفه وحركاته وسكناته وتصرفاته يكون فيها جانب إلهي.. وفيها اتصال ربّاني. ونفحة سماوية.. لكي لا تغلق نافذة الإنسان المفتوحة على عالم الغيب والملكوت.. لأن إغلاق هذه النافذة وغياب الجانب الإلهي من حياة الإنسان سيؤدي بالإنسان إلى أن يكون كالماء القليل الذي ينفعل بملاقاة النجاسة بأدنى درجاتها.. وكما أن هناك آثاراً فقهية تترتب على الماء المتنجس كعدم صلاحيته للشرب أو استعماله في الطبخ.. أو استعماله في

الوضـوء والغـسل.. فكـذلك هنـاك آثـار معنويـة تترتـب عـلى الإنسان إذا انقطع عـن الاتـصال بـالله وابتعـد عـن عـالم النـور والكمال والطهارة الإلهية.

- **قصور العقل الإنساني عن إدراك نوع العمل المقرب إلى الله سبحانه**

وما دامـت العبـادة تقـوم بهـذا الـدور المـصيري في حيـاة الإنسان وأنها وسيلته للارتباط والاتصال بعـوالم الغيـب العليـا التي تقربه من الحق سبحانه وتعالى سوف يكون العقل الإنـساني قاصراً عن إدراك نوع العمل والعبـادة التـي تحقـق هـذا الهـدف لعدم إحاطته بتلك العوالم وطريق الوصول إليها.. ولا شـك أن فلسفة النبوة قائمة على هذه المقدمة وهي قصور العقل الإنـساني عن إدراك المصالح العليا والكمالات والسعادة الحقيقية ولـذلك فهو محتاج إلى الوحي الإلهي والرسـالات الـسماوية للقيـام بهـذه المهمة التي تحدد مصيره النهائي إلى الأبد.. ومن هنا فإن ما يطرح في بعض الأبحاث في العصور المتأخرة من معرفة فلسفة الأحكام الشرعية والوقوف على ملاكاتها الحقيقية يتضمن خطئاً كبيراً لأن الوقوف على فلسفة الحكم الشرعي يعني أن الإنـسان قـادر عـلى إدراك المصالح والمفاسد الحقيقية في الأعمال وهو خلاف فلـسفة النبوة وضرورة الحاجة للوحي السماوي في الحياة البشرية.



● الأمر بذبح إسماعيل عليه السلام مثال قرآني

وللوقوف على هذه الحقيقة نتعرض لمثال قرآني يصور لنا الطاعة الإلهية والعبادة بأعلى مستوياتها.. وهي قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما أمره الله سبحانه وتعالى بذبح ولده إسماعيل عليه السلام. ومن المعلوم أن إبراهيم عليه السلام أبو الديانات التوحيدية، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً للهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وفي ضوء قصة الذبح نسأل: لو خلّي إبراهيم عليه السلام ونفسه وأراد أن يطيع الله سبحانه ويتقرب إليه، فهل يأتي في ذهنه أو تفكيره في أن يذبح ابنه طاعة لله من تلقاء نفسه؟! فيقول مثلاً: أريد أن أكون عبداً لله مطيعاً متقرباً إليه بذبح ولدي؟! وهل يدرك مصلحة ذبح ولده لو لم يأته الأمر الإلهي بذلك؟! ولذلك عندما أمره الله سبحانه بهذا التكليف العظيم لم يفكر إبراهيم عليه السلام ويتأمل في مبررات هذا التكليف الإلهي وما هي الفلسفة والمصلحة في ذلك لكي يطيعه.. كلا لم يفكر في ذلك أصلاً بل

---

(١) النحل: ١٢٠-١٢٣.

أسلم هو وولده لهذا الأمر الإلهي.. ومن الواضح أن هذا الانقياد يمثل درجة عظيمة من الصعب حتى تصورها في وجداننا ونفوسنا ولا يمكن حتى تعقلها لمن هو في مرتبتنا.

ولكن كيف وصل إبراهيم عليه السلام إلى هذه الدرجة العظيمة من الطاعة والانقياد؟ الجواب: أنه لم يفكر بغير الله سبحانه ولا يوجد في نفسه ووجوده أي شيء سوى الله سبحانه وتعالى.. ولم يقل أن هذا ولدي.. وأن ذبحه بهذا الشكل سوف يؤلمني أو أتأثر لذلك .. كلا.. وإنما ﴿أَسْلَمَا﴾ أي الأب والابن لهذا الأمر الإلهي .. ولذلك نرى سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر (تقدست نفسه الطاهرة) يكرر دائماً أننا عندما نتعامل مع الله عز وجل لا بد أن نكون كالميت بين يدي الغسال.. إن هذا التعامل في الحقيقة يرجع إلى درجة التوحيد التي يصلها الإنسان في المعرفة الإلهية فكلما ارتقى الإنسان في صراط التوحيد ودرجاته سوف ينعكس ذلك على كل سلوكه الاجتماعي والفردي والنفسي والعقلي والقلبي.. فتصبح جميع أعماله الظاهرية والباطنية تجليات لتوحيد الله سبحانه وتعالى، والتعبير بـ(الميت بين يدي الغسال) كناية عن أن الإنسان لا إرادة له أمام الإرادة الإلهية.. فالميت المسجّى بين يدي الغسال لا إرادة له أصلاً أمام

إرادة الغسال يقلبه كيف يشاء! هكذا يكون العبد الحقيقـي أمـام مولاه الحقيقي. فالإنسان إذا أدرك حقيقة أنه مخلـوق لله مـصيره وحياته وجميع جهات وجوده بيد الله سبحانه، كيـف يقـول: أنـا أريـد؟! أو عقـلي يريـد؟! أو أن عقـلي لا يـسلّم أمـام التكليـف الإلهي.. في الحقيقة هذا النوع من التفكير ينطوي على خطأ معرفي وتكويني.. لأن التسليم للإرادة الإلهية ليس جزافاً وإنما هـو مـن مقتضيات طلب الكمال والارتباط بالخالق الموجد عز اسمه.. بل إن العقل لو أدرك هذه الحقيقة فمن المحال أن لا يـسلّم لـلإرادة الإلهية لأن العقل هو مدار التكليف كما هو واضح..

• منظومة الخلق مترابطة تكويناً

إننا نستيقظ صباحاً فنريد أن تكون الـشمس مـشرقة إذ لا حياة على الأرض لو لا وجود الشمس.. وكـذلك مجـيء النهـار والليل.. والصيف والشتاء.. بل وحركة الفلـك بأجمعـه.. ومـن المؤكد أن هذه الأمور ليست بيد الإنسان وليست تحت إرادتـه.. ولو توقفـت هـذه الحركـة الفلكيـة لقـضي عـلى حياتنـا في هـذا الكوكب لا محالة.. فمن هو موجد هذه الحركة الكونية؟ لا شك أن الإيمان يقودنـا إلى الـصانع الحكـيم والخـالق المبـدع وهـو الله سبحانه وتعـالى.. فـنحن نريـد تكوينـاً وبـشكل لا شـعوري أن

تستمر حركة الوجود والكون التي يستند إليها استمرار حياتنا في هذا العالم.. ولكن خالق هذه المنظومة عندما يقول أطيعوني في تكاليفي التي يرجع كمالها وفائدتها لكم نرى الإنسان يقول: إن عقلي لا يسلّم بوجود الله!! ولا يدرك وجوب طاعة الله!! لا بد أن نعلم أن منظومة الخلق والوجود مترابطة.. بمعنى أننا كما نريد من خالق هذا الكون أن تستمر أسباب الحياة في هذا العالم كالشمس والماء والهواء كذلك لا بد أن نرتبط بأوامره ونواهيه.. وليس من المعقول والمنطقي أن نفرّق بين الأمرين.. لأن التكاليف الإلهية لم تصدر جزافاً وإنما وجدت ضمن منظومة مترابطة مع مقتضيات الكون والوجود الأخرى، ومن هنا نجد هذه الالتفاتة العميقة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فهذه العبادة تقتضيها الربوبية والخالقية .. أي ما دام الله ربكم وخالقكم.. فجميع شؤون حياتكم بيده وتحت إرادته.. والرب هو من بيده التدبير الوجودي.

وهو سبحانه ربنا لأنه خالقنا.. فتجب عبادته وطاعته لأنّها حفاظ على وجود الإنسان والوصول إلى كماله.. وإذا أردنا أن نقرب هذا المعنى من خلال مثال من حياتنا اليومية فنمثل لهذه الحالة بـ(الكتاب التعليمي) الذي يصدره مصنع السيارات

ويضعه داخل السيارة ويذكر فيه جميع حالات توقف الأجهزة وطرق معالجتها.. وليس من المنطقي والمعقول أن السائق إذا واجه حالة ما في سيارته أن يرجع إلى كتاب تعليمي آخر خاص بسيارة أخرى ومن نوع آخر غير سيارته.. وذلك لسبب واضح، وهو أن المصنع الذي صنع هذه السيارة هو الأعرف والأعلم بكل شيء يرتبط بهذه السيارة سواء كان ضاراً أم نافعاً.. فلكي تستمر هذه السيارة بعملها بشكل طبيعي لا بد أن نلتزم بالتوجيهات والتوصيات التي دوّنها المصنع في هذا الكتاب.. فالله سبحانه وتعالى بمقتضى أنه خالق الكون وموجده.. وخالق الإنسان فهو العالم بمصالحه ومفاسده وطرق كماله وأسباب هلاكه لا محالة... فلا يمكن فصل التكاليف الإلهية عن منظومة الخلق والتكوين...

ولا بد أن نعلم أن جميع الأسئلة والاثارات التي تقول: لماذا نصلّي؟ ولماذا نركع ونسجد؟ ولماذا نطوف حول الكعبة؟ ولماذا نصوم ونجوع ونعطش؟ جميع هذه الأسئلة وأمثالها ناشئة من الفصل بين منظومة الخلق وبين التكاليف الشرعية، ولذا قالت الآية الكريمة: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ فالعبادة جزء من منظومة الربوبية والخالقية.



• **كلام العلامة الطباطبائي والسيد الشهيد الصدر قدس سره حول العبادة**

ولتعميق هذا الموضوع والتوسع فيه بما يسمح به المقام والحديث حول عبادة الله عز وجل والامتثال لتكاليفه نذكر كلامين يرتبطان بذلك، أحدهما للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره والآخر للسيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره.

أما ما ذكره السيد الشهيد الصدر قدس سره فيحتاج إلى مقدمة فيها نوع من التخصص في العلوم الدينية لكننا نذكرها هنا من باب الوصول إلى حقيقة العبادة وعلاقتها بالتكاليف الشرعية.

يوجد لدينا بحث في علم أصول الفقه وهو أن المصالح في الأحكام الشرعية هل هي موجودة في متعلقات الأحكام أم في نفس الأمر الإلهي؟ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى عندما يأمر بالصلاة (يا أيها الذين آمنوا أقيموا الصلاة..) ففي هذا التكليف مصلحة شديدة تقتضي الوجوب والإلزام، لكن هذه المصلحة الشديدة هل هي موجودة بنفس ركعتي صلاة الصبح مثلاً أي في متعلق الأمر الشرعي أم أن المصلحة موجودة في نفس الأمر الإلهي أو في الامتثال لهذا الأمر الإلهي؟ وفي جواب هذا السؤال اختلفت اتجاهات الأصوليين سواء بين علماء العامة أم علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام .. ومن المؤكد أننا في هذا المقام لسنا

بصدد الخوض في هذا الموضوع بقدر ما يتعلق الأمر بموضوع البحث وهو العبادة، وفي هذا المجال ذهب السيد الشهيد الصدرقدس سره إلى نظرية أو رؤية تختلف عما ذهب إليه مشهور الأصوليين في هذه المسألة، حيث يقول أن المصلحة المنظورة للشارع في العبادات ليست هي المصالح الموجودة في المتعلقات وإنَّما المصلحة المنظورة في العبادات هي نفس الانقياد والطاعة والامتثال للتكليف الشرعي.

قالقدس سره: (ونحن لا ننكر أنه كثيراً ما يكون ملاك الحكم في نفس الحكم دون متعلقه، لكن لا بمعنى أن لا يكون هناك غرض للمولى وراء هذا الحكم، بل بمعنى أن الإتيان بالمتعلّق بعنوانه الأولي ليس مطلوباً، -يعني أن الإتيان بركعتي صلاة الصبح بدون أمر المولى ليس مطلوباً ولا توجد فيه مصلحة- وإنما المطلوب هو امتثال حكم المولى بوجوب الركعتين.. أي يريد الامتثال والطاعة بالإتيان بهاتين الركعتين فيحكم المولى بالمتعلق كي يمتثله العبد فتحقق المصلحة خارجاً، وهي الامتثال والطاعة ولعل هذه المصلحة هي الملحوظة في جلّ العبادات أو كلها)[1].

وأما ما ذكره العلامة الطباطبائيقدس سره في الموضوع نفسه،

---

(١) مباحث الأصول، السيد كاظم الحائري، ج٢، ص٣٢، وكذلك بحوث في علم الأصول، السيد محمود الهاشمي، ج٤ن ص١٩٠.

فيقول: (إذا تتبعنا الكتاب والسنة وتأملنا فيهما تأملاً وافياً وجدنا أن المدار في الثواب والعقاب هو الطاعة والانقياد والتمرد والعناد فمن المسلّم المحصل منهما - الكتاب والسنة- أن المعاصي حتى الكبائر الموبقة لا توجب عقاباً إذا صدرت ممن لا يشعر بها أو من يجري مجراه - كالساهي والغافل وأمثالهما- وإن الطاعات لا توجب ثواباً إذا صدرت من غير تقرب وانقياد)[1].

بمعنى أن مناط الثواب هو تحقق الانقياد لله سبحانه وامتثال أوامره، لا أنه نفس الإتيان بالعمل تكويناً بدون قصد الانقياد والطاعة.

ثُمَّ يقول: (وكذلك صدور المعصية ممن لا يشعر بكونها معصية إذا قصد الإطاعة لا يخلو من حسن، وصدور الطاعة بقصد العناد واللعب لا يخلو من قبح، فالمناط إذا تتبعنا الكتاب والسنة لوجدنا المدار في الثواب والعقاب هو الطاعة والانقياد والتمرد والعناد، وكذلك مراتب الطاعة والمعصية تختلف حسب الانقياد والتمرد الذي يشتمل عليهما)[2].

بناء على هذا الكلام لو قام شخص بالصلاة لعباً أو تمرداً

---

(١) رسالة الولاية، ص٣٤.

(٢) رسالة الولاية، ص٣٤.

فإن هذه الصلاة لا تكون عبادة ولا تصلح أن يتقرب بها إلى الله سبحانه بل ستكون قبيحة مذمومة لا محالة.

فإذا أدرك الإنسان أنه قاصر عن إدراك المصلحة المصيرية والحقيقية في حركته الوجودية سوف يسلم أمر حياته ومسيرة وجوده لخالقه وربّه ومولاه.. فالإنسان يشعر وجداناً أنه مخلوق.. أي لم يكن موجوداً ثم وجد في هذا العالم.. وهذا الخالق الذي أفاض عليك نعمة الوجود يصدر إليك أوامره وتكاليفه التي هي جميعاً من أجل مصلحة الإنسان.. فهل من المنطقي والصحيح أن يقول في لحظة ما أني لا أدرك أن وجودي حسن!! ولو لم يخلقني الله لكان أفضل لي؟! إن هذا الكلام لا يمكن أن يتفوه به إلا من ينكر وجدانه ونفسه ومقتضيات عقله.. بل سيكون ذلك لقلقة لسان لا أكثر... ومن هنا نؤكد على أن العبادة وعلاقتنا بالله سبحانه وتعالى في أوامره ونواهيه والانقياد والامتثال لها لا بد أن ترتبط بحقيقة الخلق والوجود.

● ضرورة وجود الشريعة في حياة الإنسان

وعلى هذا الأساس نفهم أيضاً ضرورة وجود الشريعة في حياة الإنسان، إذ لا يمكن للإنسان في هذا العالم أن يعيش بدون شريعة.. لأن الإنسان يتحرك.. يفعل.. يعمل.. لا يمكن لأحد

أن يقول أنني ساكن لا أتحرك! إن هذا الفرض مستحيل.. ولكن السؤال المهم هنا: أننا على أي أساس نتحرك وكيف نختار الجهة التي نتحرك نحوها؟ إن الإنسان يتحرك بالضرورة نحو كماله، إذ من المستحيل أن يتحرك إنسان عاقل نحو نقصه وضرره.. ولو وجدنا شخصاً يتحرك نحو نقصه وضرره فهو لا محالة مشتبه في مصداق الكمال وتحديده.. وليس في أصل طلب الكمال.. وما دامت الحركة ضرورة تكوينية في حياتنا فلا بد لنا أن نحدد اتجاهها الذي نحصل به على كمالاتنا.. وفي هذه النقطة إما أن يقوم الإنسان نفسه بتحديد الجهة فيضيع كما هو حال المجتمعات التي انقطعت عن الوحي وتعاليم السماء الحقَّة.. وأما أن يقول الإنسان لا جهة عندي أتحرك نحوها وهذا تعبير آخر عن الإلحاد.. أو يجد الإنسان جهة محدودة يتخذها مثلاً أعلى لحركته.. وهي بالتالي لا تلبي له متطلبات كماله الحقيقي.. والمهم هنا أن الحل الوحيد لهذه المشكلة يكمن في الإيمان بالله سبحانه وتعالى.. وهو الذي يحدد وجهة الحركة عند الإنسان السائر نحو كماله الحقيقي. وسيأتي توضيح ذلك في اللاحق من هذه المحاضرات بعونه تعالى.

والحمد لله رب العالمين



المبحث الثالث

● **الإيمان هو الذي يوجه حركة الإنسان نحو الكمال الحقيقي**

ذكرنا في المبحث السابق أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو الذي يوجّه حركة الإنسان نحو الكمال الحقيقي وبالتالي تكون العبادة وفقاً لهذا الإيمان سلوكاً عملياً يعمّق معنى الإيمان في نفس الإنسان.. وفي هذا المجال قال السيد الشهيد الصدر قدس سره في بحثه حول العبادات في الإسلام: أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى هو العلاج الحقيقي لمشكلة الضياع عند الإنسان والتي سمتها الشريعة بالإلحاد، ومن جهة أخرى يكون الإيمان أيضاً علاجاً لمشكلة الغلو والوثنية التي يقع فيها الإنسان كذلك عندما تنحرف حركته الوجودية عن هدفها الحقيقي.

ولكي لا يكون الإنسان ضائعاً ولا يكون مشركاً قدمت له السماء علاج الإيمان بالله عز وجل، والإيمان ينتشل الإنسان من الضياع والإلحاد وينقذه من مشكلة الغلو والشرك والوثنية، بمعنى أنه يقوّم مسيرة الإنسان نحو كماله الحقيقي، لكن الإيمان إذا بقي وحده بدون سلوك عملي في حياة الإنسان سوف يخبو

وينطفئ في نفس الإنسان ويكاد ينعدم، حاله حال الغرائز والأمور المعنوية الأخرى كالرحمة والشفقة وبذور العطف والحنان.. فإذا لم يكن للإنسان سلوك عملي يجسد هذه الأمور خارجاً فإن تلك الأمور سوف تموت في نفسه، لذلك نرى الإنسان الذي يعيش مع المظلومين والفقراء تكون هذه الغرائز على درجة عالية في نفسه كالشفقة والرحمة والعطف، وأما الإنسان الذي يكون بعيداً عن المظلومين والمساكين والفقراء سوف نرى أن مستوى هذه الغرائز في نفسه هابطاً أو متدنياً ولا نقول أنها تنعدم مائة بالمائة لكنها تكاد أن تنطفئ، وذل لعدم وجود ممارسة عملية وتجسيد خارجي في حياته... وكذلك الحال في الإيمان فإذا لم يكن لدى الإنسان المؤمن ممارسة عملية خارجية ظاهرية في حياته سوف تخبو شعلة الإيمان الداخلية الباطنية عنده، ومن هنا جاءت العبادات في الشريعة لتؤدي هذا الدور، الإنسان بواسطة الإيمان يرفض الإلحاد والضياع، ويرفض الشرك والآلهة الأخرى غير الله عز وجل (قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) وبواسطة (لا إله إلا الله) يكون مؤمناً في نفسه وقلبه، ولكن لا بد عليه للحفاظ على هذا الإيمان أن يجسده خارجاً ويعمقه من خلال سلوك عملي.. أي يعيش هذا الإيمان بصورة

حقيقة واقعية.. أي لا بد للإنسان أن يرفض الآلهة المصطنعة.. لا بد أن لا يسجد لغير الله تعالى.. لا يركع ولا يخضع لغير الله تعالى أو من يأمر الله بطاعته..

• عالم الدنيا هو عالم التزاحم والتنافي

ومن المعلوم أن عالم الدنيا يمثل النشأة المادية وهو بعيد من الناحية الرتبية عن مصدر الكمال والنور الحقيقي.. فالإنسان عندما وجد في نشأة الدنيا والمادة يكون قد ابتعد عن مصدر الكمال الحقيقي، ويكون واقعه التكويني أنه فقير أو عين الفقر لله سبحانه وتعالى، ولكن حيث أن عالم الدنيا هو عالم التزاحم إذ لا يمكن فيه أن تحقق لذة أو كمال خالٍ من الشوائب والمزاحمات الأخرى.. فعند مجيئنا إلى الدرس صباحاً والذي نعتقد أنه كمال لنا نرى أن الوصول للدرس لا يتحقق إلا بعد الصعود بالسيارة مثلاً وهذا يستدعي أن هناك سائقاً مستيقظ صباحاً من أجل معيشته.. ولا بد أن نتناول الفطور.. من أين يأتي طعام الفطور؟ لا بد من وجود زراعة وصناعة وناس تعمل وتضحي بوقتها وجهدها.. وهكذا إلى الآلاف وملايين المقدمات والأمور التي تتوقف عليها أعمالنا اليومية.. وهذا هو شأن عالم المادة فإنه لا يخلو من التزاحم والتمانع والتنافي.. والمهم في البحث أنَّ هذه

الأمور المادية ضرورية لاستمرار الحياة في هذا العـالم وفيهـا نفـع وفائدة كبيرة للإنسان في حياته الدنيوية.. كالمال والبنـون وجميـع مقتضيات العيش التي تمثل زينـة الحيـاة الـدنيا... ولا يمكـن أن يستغني عنها الإنسان.

• الالتفات الكامل للدنيا يصنع الآلهة المزيفة

لكن الاحتياج لهذه الأمور يجعل الإنسان ملتفتاً إليها.. ثم يكبر هذا الاحتياج والالتفـات فيقـول الإنـسان: المـال مهـم في حياتي ... المنصب مهم في حيـاتي.. الكـسب والبنـون مهـمان في حياتي.. وهكذا ويـزداد هـذا الالتفـات للأمـور الدنيويـة حتـى يتعدى مداه الصحيح والمحدد الذي ينسجم مع مسيرة الإنـسان المؤقتة في هذا العالم الدنيوي.. فـإذا وصـل الالتفـات والاهـتمام بهذه الأمور هذه الدرجـة مـن الإفـراط سـوف تـصبح الأمـور المذكورة آلهة تعبد مـن دون الله.. والآلهـة ليـست هـي الأصـنام المعروفة دائماً.. بل القرآن يسمي الهوى إلهاً ﴿**أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَـهُ هَوَاهُ**﴾ .. فالـذي يتبـع هـواه في الأكـل والـشرب في نهـار شـهر رمضان مثلاً يكون قد اتخذ إلهاً من دون الله!! وهكذا حبّ المـال والسلطة والركون إلى ملذات الدنيا تكون كلهـا آلهـة تعبـد مـن دون الله.. فتكثر الآلهة والأصنام في حياتنـا.. وهـي آلهـة مزيفـة

ليست حقيقية لكن الإنسان يلتفت إليها بدرجة يتصور أن وجوده ومصيره النهائي متعلق بها فتكون آلهة يعبدها لا محالة.. ولو بقي الإنسان في حياته الدنيوية على هذه الحال من دون ممارسة عملية لإيمانه فإن هذه الآلهة المزيفة سوف تكبر وتسحق ذات الإنسان.. ومن هنا جاءت العبادات لتنقذ الإنسان من شرور هذه الآلهة وتخلصه من الركون والتذلل لها.

• حكمة تكبيرة الإحرام

عندما نقوم بتكبيرة الإحرام في الصلاة فنقول (الله أكبر) وكلمة (أكبر) فعل تفضيل كما هو معلوم.. ومن حقك أن تسأل: الله أكبر من أي شيء؟ ولماذا جعلت هذه الكلمة مقدمة لإقامة الصلاة؟

ومن الحكم التي يمكن ذكرها في المقام جواباً عن ذلك: أن الحياة المادية التي يعيشها الإنسان وبسبب حاجته لبعض مقتضياتها سوف تظهر فيها آلهة مزيفة نعتقد أن حاجاتنا متعلقة بها.. فتكون آلهة مصطنعة.. وهنا يأتي دور الصلاة.. فإنها شرعت خمس مرات في اليوم الواحد.. ونقول في بداية كل منها (الله أكبر) وهذا يعني أننا نخاطب جميع موجودات هذا العالم المتوجهة إلينا والتي نتصور أو نتوهم أن استمرار حياتنا لا يكون

إلا بها ونقول لها: الله أكبر.. الله أكبر.. أي إنك مهما بلغت.. ومهما بلغت حاجاتنا إليك.. ولكن الله سبحانه وتعالى أكبر وهو الذي يستحق التوجه الحقيقي نحوه.. فتكبيرة الإحرام هي ممارسة عملية تمنعنا من التوجه للآلهة المصطنعة واطاعتها ولذلك كانت تكبيرة الإحرام التي صدرت من الإمام السجاد عليه السلام ذات تأثير عظيم على من سمعها كما هو منقول في بعض الروايات: أن هناك رجلاً سمع تكبيرة الإحرام من الإمام عليه السلام فخرّ مغشياً عليه!! لأن هذه التكبيرة تكبيرة حقيقية مستوفية لجميع شروطها الإلهية.. فعندما يقول الإمام المعصوم (الله أكبر) سوف تفنى عنده كل الآلهة المصطنعة المزيفة وتحطم جميع أصنام العالم الدنيوي..

● معنى الركوع والسجود والصوم والحج والجهاد

وهكذا الحال في الركوع، فإن الإنسان المؤمن ينحني يومياً في الصلاة لله سبحانه وتعالى.. والركوع هو خضوع له سبحانه وتعالى.. وهو ممارسة عملية عبادية إذا شعر بها الإنسان يومياً فإنه لا يغرق في الخضوع للآلهة المصطنعة.. وهكذا الأمر في السجود أيضاً.. وعندما نصل إلى الصوم نجد أيضاً أن لسان حال الصائم في نهار شهر رمضان يقول: لا للشهوات.. لا

للأكل.. لا للشرب.. لأن هذه الشهوات أيضاً يمكن أن تغرق الإنسان في اتباعها وعبادتها وعليه لا بد أن يبقى في حرب دائمة معها لكي لا تكبر في حياته ولكي لا يقع في الشرك والضياع والتيه وبالتالي ينقطع عن مصدر الكمال الحقيقي.. فالله سبحانه وتعالى يدخلنا هذه الدورة السنوية لمدة شهر واحد في محاربات الشهوات والأهواء والملذات المادية.. ومن الملفت للنظر أن الله سبحانه وتعالى يهيئ للإنسان في هذا الشهر الكريم جميع ما يحتاجه في حربه ضد الشهوات.. إذ تؤكد النصوص المعتبرة أن الشياطين مكبلة في شهر رمضان والنوم فيه عبادة والأنفاس تسبيح.. فالصوم هو ممارسة عملية للإيمان بالله سبحانه وتعالى ورفض آلهة الشهوات والأهواء والنفس الأمارة بالسوء..

وهكذا الحج، فإن جميع أعمال الحج كالإحرام وارتداء اللباس الأبيض والطواف حول الكعبة المشرفة والسعي بين الصفا والمروة والوقوف على صعيد عرفة والذبح والحلق كلها مظاهر للتوحيد ورفض الآلهة المزيفة..

وعندما نصل إلى الجهاد الذي يمثل أعلى درجات العبادة.. لأن الصوم مثلاً فيه نوع من التضحية في الابتعاد عن بعض الملذات... وهكذا الصلاة ففيها تكاليف بدنية كالركوع

والسجود وغيرهما.. وهكذا الزكاة فيها تضحية مالية.. ولكن عندما نتكلم عن الجهاد ستكون التضحية في أعلى درجاتها وهي التضحية بالنفس في سبيل الله.. ولذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (الجهاد باب فتحه الله لخاصة أوليائه).. ومن المؤكد أن الشهيد في سبيل الله عندما يصل إلى هذه الدرجة العظيمة والمراحل السامية من العبادة يكون قد حطّم جميع الآلهة المزيفة في حياته ورأى أن هذا الإله الواحد المعبود الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له هو الذي يستحق أن يعطى هذه التضحية.

• العبادة سلوك عملي يعمق عقيدة الإيمان

فالعبادات إذن هي سلوك عملي يحافظ ويعمق عقيدة الإيمان عند الإنسان، ولذلك ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في وصيته لأبي ذر رضوان الله عليه: (ليكن لك في كل شيء نية حتى في الأكل والنوم) أي أن تكون جميع أفعالك قربة إلى الله تعالى فتكون حياتك بأكملها عبادة له سبحانه وتعالى. أي تكون حياة الإنسان في جميع مستوياتها سجوداً حقيقياً لله عز وجل، وبتعبير السيد موسى الصدر: (تكون حياة الإنسان سجدة طويلة) فوجودنا في الدرس إذا كان قربة لله تعالى سيكون سجوداً.. نفوسنا ساجدة خاضعة لله عز اسمه.. صحيح أنت ترانا الآن جالسين ولسنا في

وضع السجود البدني ووضع جباهنا على الأرض.. ولكن ما دام في هذا الدرس نية القربة الحقيقية إن شاء الله فهو ارتباط بمصدر الكمال والنور فهذه في الحقيقة سجدة.. وكل عمل من أعمال الإنسان إذا تضمن القربة ونوى به وجه الله تعالى سيكون سجدة.

وفي وصية النبي الأكرمﷺ لأبي ذر أيضاً قال: (يا أبا ذر: إن الله لم يوح إليّ أن أجمع المال، ولكن أوحى إليّ: أن سبح بحمد ربك، وكن من الساجدين، واعبد ربّك حتى يأتيك اليقين).

• الكون كله ساجد لله

ولابد أن نعلم هنا أن هذا السجود ليس مختصاً بالإنسان بل الكون بأجمعه ساجد لله سبحانه وتعالى حقيقة. قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[1] فالكون بسماواته وأرضه وما فيهن وما بينهن يقدس الله ويسبحه وهو خاضع وعابد له عز وجل.. والإنسان هو خليفة الله في هذا الكون فلا بد أن يكون أول الساجدين وقدوة المخلوقات في الخضوع لله سبحانه.. ومن هنا يظهر لنا قبح الدور الذي يؤديه الإنسان العاصي والمتمرد

---

(١) الإسراء: ٤٤.

والبعيد عن الإيمان.. فبالرغم من أن الإنسان سيد المخلوقات وهذا الكون كله ساجد لله في حركة تكاملية نحو الله تعالى نرى أن الإنسان يتمرّد ويعصي!! فهذه أيدينا مسبحة لله ولكن لا نفقه تسبيحها.. مطيعة لله بالطاعة التكوينية.. والله سبحانه سخرّها لنا في هذه الدنيا فقط، ولذلك إذا ارتفع هذا التسخير يوم القيامة سيكون (تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم) فتكون شاهداً علينا يوم الحساب، ومن المعلوم أن الشاهد له إدراك وإرادة مستقلّة حتى تصح شهادته.. فهذه الأعضاء كائنات مخلوقة خاضعة لله سبحانه في الدنيا والآخرة.. والله سخرها لنا.. كما هو الحال في الأنعام يقول القرآن: (ذللناها لهم) فهناك دقة في التعبير (ذللناها) فهذه الحيوانات مذللة بأمر الله سبحانه .. نسوقها.. نركبها .. تحمل أثقالنا .. ولو رجعت إلى وضعها الطبيعي يوم القيامة فستكون شاهدة على الإنسان وتدينه في محكمة الجزاء الإلهي..

وكذلك الحال في الأرض فإنها أيضاً تشهد على الإنسان يوم القيامة سواء صدرت منه حسنة أو سيئة على الأرض... أي أنها كانت مسخرة بأمر الله ومطيعة ومسبحة له سبحانه.. والحاصل أن الكون كله مسبّح لله ولكن لا نفقه تسبيحهم حسب تعبير القرآن.



● المعاني المتصورة للمسجد

ومن هنا نجد أن سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر (قدس الله نفسه الزكية) عندما يتحدث عن المسجد في كتاب فقه الأخلاق يعطي للمسجد ذلك المعنى الواسع الذي يشمل الكون كله، حيث يقول: (إن المسجد هو المعبد، على أن تكون العبادة المنجزة فيه هي السجود بصفته غاية الخضوع لله سبحانه وتعالى، وهو السجود الحق والسجود لغيره باطل ومحرم.

إذن ففي كل مكان أو زمان كبر أو صغر، حصل فيه ذلك المعنى من السجود، فهو مسجد، ومن هنا أمكن أن يكون للمسجد معانٍ ومستويات عديدة، منها:

١. الكون كله، مع التفكر في خلق الله سبحانه.

٢. النفس، مع التفكر في الآيات الباطنية لها.

٣. القلب، حين يكون منوراً بنور الحق.

٤. العقل، مع إمكان صعوده إلى أعلى الدرجات.

٥. كل مكان أو زمان يحصل فيه التوجه التام.

٦. المسجد بالمعنى الفقهي المتعارف)[1].

إذن من خلال هذه النظرة الشاملة لمعنى العبادة والسجود

---

(١) فقه الأخلاق، ج١، ص٢٠٢.

لله سبحانه يكون عندنا مسجد العقل.. ومسجد القلب.. ومسجد النفس .. ومسجد الكون كله بالإضافة إلى المسجد المتعارف .. ومن المعلوم أن هناك أحكام خاصة بالمساجد مذكورة في كتب الفقه ونستطيع أن نطبق هذه الأحكام معنوياً على جميع معاني المسجد المذكورة آنفاً... فكما لا يجوز دخول الجنب إلى المسجد المعروف.. وتجب إزالة النجاسة عنه.. فكذلك مسجد القلب والروح والعقل والكون.. لا يجوز أن تدخله النجاسات المعنوية مثل حب المال والشهوات والأهواء المنحرفة وغيرها.

ومن هذا المضمون نفهم نظرة العابد الحقيقي إلى الكون والحياة إذ تكون حياته بجميع مستوياتها سجدة لله سبحانه وتعالى ويشعر بأن الكون بأجمعه هو مسجد يعبد فيه الله عز وجل.

● التواضع للأغنياء وأثره السلبي على الإيمان

وبالعودة إلى موضوع الآلهة المصطنعة وتأثيرها على إيمان الإنسان وعقيدته نذكر هذه العبارة التي وردت عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال: (من تواضع لغني لغناه ذهب ثلثا دينه)، لأن الدين هو التوحيد وبمجرد أن يبتعد الإنسان عن حقيقة

التوحيد يختل دينه لا محالة.. فإن التواضع للغني بسبب غناه يذهب بثلثي دين الإنسان، لأنه في الحقيقة خضوع للآلهة المزيفة المصطنعة وهي الأموال التي عند الغني.. إذ أن مجرد اقترابك منه لهذا السبب يعني ابتعادك عن الإله الحقيقي.. فيذهب ثلثا دينك!!

• المظهر الباطني والظاهر للعبادات وشبهة الاستغناء عن العبادة الظاهرية

الآن نتقدم خطوة إلى الأمام في بحث العبادة من أجل تعميق معنى العبادة وبيان دورها الكبير في حياتنا.. إذ ليس المقصود من حقيقة العبادة هذه الحركات والأفعال البدنية التي نقوم بها في الصلاة مثلاً.. نعم إن هذه الحركات هي مظهر خارجي للخضوع الباطني والداخلي عند الإنسان العابد.. فإننا عندما ننحني في الركوع خضعنا لله سبحانه.. ولكن ليس هذا هو الخضوع الحقيقي.. وإنما الخضوع الحقيقي هو خضوع النفس والقلب أمام عظمة الخالق عز وجل.. وانحناء الظهر ليس إلا مظهراً وتجلياً لذلك الخضوع الحقيقي والارتباط الواقعي بالله سبحانه وتعالى... وكذلك الحال في الصوم مثلاً.. فالصوم المادي الخارجي هو كفّ النفس عن الأكل والشرب وباقي المفطرات المذكورة في كتب الفقه.. وهذا الفعل هو مظهر للصوم

الحقيقي.. وأما الصوم الحقيقي فهو الارتباط بالله سبحانه والابتعاد عن الشهوات الحقيقية النفسية والروحية والتكوينية.. ولذلك يصبح الصوم كمالاً.. والركوع كمالاً.. والسجود كمالاً.. إذ الكمال هو ذلك الارتباط الروحي الذي يؤدي إلى تطهير النفس والقلب بالاتصال بالله.. مصدر الكمال الحقيقي ورفض الآلهة الأخرى.. فالمقصود أن للعبادات ظاهراً وباطناً.. والمهم هو تحقق باطن العبادة وروحها مع ضرورة حفظ ظاهرها.. أي الفعل الخارجي والحركات البدنية.. وليس من الصحيح أن يقول شخص: إذا كان المهم هو الباطن والخضوع والتذلل القلبي فأنا أتذلل قلبياً ولا أحتاج إلى الصلاة والصوم الخارجي! كما يدور على بعض الألسن ممن يدعون المعرفة الدينية مع شديد الأسف. إن هذا الكلام يعبر عن جهل كبير في حقيقة العبادة وأثرها في حياة الإنسان، والصحيح أن ظاهر العبادة وباطنها كلاهما ضروري لكن الأهم هو الحفاظ على باطنها وحقيقتها.

وقد ورد هذا المضمون عن الإمام الصادق عليه السلام: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ليضرب بها عرض الجدار).

أَوَليسَ هذه صلاة؟ وركوع وسجود؟ فكيف نضرب بها عرض الجدار؟!

والجواب: أنها بلا روح.. ولا باطن.. بل هي قشر بلا لبّ.. ولذلك لا تؤثر أثرها الحقيقي فلا تنهى عن فحشاء أو منكر.. وقلنا في الدروس السابقة أننا في عالم الدنيا كالماء القليل الذي ينفعل بملاقاة النجاسة.. وجودنا.. أرواحنا.. نفوسنا محدودة محاطة بالغرائز والشهوات والأهواء.. فنحن ماء قليل ولكي نحافظ على طهارته فلا بدّ أن نبقى متصلين بماء معتصم باللغة الفقهية.. بطهارة مطلقة وهي طهارة العالم الإلهي.. وعندما يتحقق هذا الاتصال والاعتصام سوف لا ننفعل بالنجاسة الدنيوية ولا نتبع الآلهة المصطنعة المزيفة بخوف أو طمع أو ترهيب أو ترغيب.. لأن الإنسان حينئذ معتصم بالله سبحانه.. ومن توكل على الله فهو حسبه.

فالعبادات هي الارتباط النفسي والروحي الحقيقي والجوهري.. والمظهر الخارجي لها لا يمكن الاستغناء عنه بحال.. وعند الأولياء الكمّل لا ينفك المظهر والفعل الخارجي عن الخضوع والاتصال الروحي.. فعندما تكون نفسه خاضعة يكون جسده خاضعاً.. وعندما تكون نفسه ساجدة يكون بدنه ساجداً أيضاً.. فهناك تلازم روحي وجسدي في حقيقة العبادة عندما تتحقق في هذا العالم.

● أثر المعرفة والتفكر في العبادة

وعندما نتكلم عن العبادات فإننا نقصد العبادة المرتبطة بالمعرفة وكلما زادت المعرفة بالله سبحانه زادت العبادة وتعمق معناها في القلب، ومن هنا ورد أن العبادة ليست بكثرة السجود والركوع وإنما بكثرة التفكر.. لأن التفكر ينتج المعرفة.. وهذا ما تؤكده الروايات الواردة من أن صلاة ركعتين من عالم تعدل سبعين سنة عبادة من جاهل وكذا العبادات الأخرى كالصوم وغيره.. وعندما نتحدث عن العبادة لا نقصد الكثرة الكمية، فقد نجد شخصاً يصلي ليلاً ونهاراً إلا أنَّه لا يدرك شيئاً من حقيقة العبادة والاتصال بالله سبحانه.. فيما نجد شخصاً آخراً يصلي ركعتين ويتفكر في الخلق وملكوت السماوات والأرض يصل إلى درجات عالية من الكمال.. وكمثال بارز على ذلك ضربة علي عليه السلام يوم الخندق وأنها تعدل عبادة الثقلين كما ورد في الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وآله، إذ كيف أصبحت من الناحية الكمية عدلاً لعبادة الثقلين؟ فإنها من الناحية الزمانية لا تتجاوز عدة ثوان فكيف صارت عدلاً لعبادة الإنس والجن بأجمعهم؟!! مع أن عبادة الثقلين قد تكون مدتها مليارات السنين بالحسابات المادية؟!

الجواب: لأن روح هذه الضربة وباطنها وحقيقتها توحيدية مائة بالمائة. فقد وقعت في الله وبالله ولله ومن الله فتعدل جميع عبادة الثقلين أمام الله سبحانه وتعالى..

ولو أردنا النظر إلى عباداتنا وأتكلم عن نفسي أننا في الركوع مثلاً أو السجود.. تسجد وتركع أبداننا ولكن أرواحنا ونفوسنا ليست كذلك.. وفي بعض الأحيان حتى البدن يكون غافلاً فلا نعلم في أي ركعة نحن.. الثانية أم الثالثة!! فضربة علي عليه السلام يوم الخندق أسست للتوحيد وكانت في حقيقتها وجوهرها توحيداً خالصاً لله سبحانه وتعالى..

والحمد لله ربّ العالمين





المبحث الرابع

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[1] وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[2].

في هذه الآيات الكريمة يتكلم القرآن الكريم عن لسان ذلك الإنسان المؤمن المذكور في سورة يس، فهو يسأل قائلاً: مالي لا أعبد الذي فطرني؟ أي أن الذي خلقني وأوجدني لماذا لا أعبده ولا أطيعه؟! وهذا المضمون تقريباً هو نفس مضمون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ الوارد في سورة البقرة، فالنداء هنا يقرر أن الله سبحانه وتعالى يستحق العبادة لأنه ربكم الذي خلقكم وأوجدكم وفطركم.. والإنسان

---

(١) يس: ٢٢-٢٤.

(٢) يس: ٦٠-٦١.

المؤمن المذكور في سورة يس يبين للناس الذين يخاطبهم أن الرب الذي فطرني وإليه رجوعي هو الذي يستحق العبادة.. ثم يسأل: أأتخذ من دونه آلهة؟! وهذا سؤال استنكاري، بمعنى أن الله إذا كان هو خالقي وفاطري وإليه الرجعى فكيف تريدون مني أن أتخذ من دونه آلهة أعبدها بالرغم من أن هذه الآلهة لا تنفع ولا تضر وليس لها شفاعة في إنقاذي من الهلاك؟ إن أرادني خالقي الرحمن بضرٍ! إذن تقرر هذه الآيات أن العبادة متفرعة على الخلق والربوبية والإيجاد.

• عداوة الشيطان والنهي عن عباته

ثم يقول تعالى في آية أخرى من نفس السورة: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ وهنا سؤال لا بد من الإشارة إليه، وهو: من الذي يعبد الشيطان؟ وهل هناك إنسان فعلاً يعبد الشيطان لكي يمنعنا الله من مثل هذه العبادة؟

الجواب: نعم، لأن العبادة هي الطاعة والانقياد، فالذي يتبع خطوات الشيطان يكون في الحقيقة عابداً للشيطان، ثم تقول الآية: ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾، هل يمكن للإنسان أن يطيع عدوّه؟ وينقاد لعدوّه؟! إن من البديهيات أن العدوّ يريد هلاك

مقابله دائماً، فهل من الصحيح أن يطيع الإنسان عدوّه؟! القرآن الكريم هنا يرسم صورة رائعة عن طبيعة فرض عداوة الشيطان لنا، فما دمتم تعرفون أن الشيطان عدوّ لكم فكيف تعبدونه؟ ثم يقول سبحانه: ﴿وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فأنا خالقكم.. وموجدكم.. وربّكم.. وفاطركم.. ولست بعدّو لكم.. فأنا الذي استحق العبادة والطاعة وهذا هو الصراط المستقيم.. الذي نتكلم عنه في سورة الفاتحة حين نقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ ...﴾ إشارة لطيفة في ذكر (بني آدم) في الكلام دون غيرها من صفات الإنسان.. كأن الله سبحانه وتعالى يقول: إن الشيطان هو الذي أخرج أبويكم من الجنة.. وهو الذي وسوس لهما.. وأنتم أيها الناس أبناء آدم فكيف تطيعون الشيطان الذي فعل بأبيكم آدم ما فعل؟!! وتتخذونه معبوداً من دون الله.. وقد ركزّ القرآن الكريم على موضوع عداوة الشيطان لبني آدم بشكل واضح، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ

---

(١) فاطر: ٦.

مُبِينٌ﴾(١)، وقال: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِين﴾(٢).

• العبادة فعل روحي ونفسي في حقيقته

وبالعودة إلى موضوعنا الأساسي في بحث العبادة من أن العبادة في حقيقتها وجوهرها هي اتصال من الإنسان العابد بمصدر النور والكمال وبالتالي تكون العبادة فعلاً من أفعال النفس والروح، وأما الأفعال البدنية كالسجود والركوع والكف عن الأكل والشرب في الصوم مثلاً فهي مظهر مادي لذلك الاتصال المعنوي والروحي بين عالم الشهادة وعالم الغيب عندما يحصل التوجه الحقيقي نحو مصدر الكمال المطلق.. ومن هنا يكون المظهر المادي للعبادة تابعاً للفعل الروحي، أي أن الانحناء في الركوع والسجود تابع للقلب والنفس والعقل والروح، فإذا حصل الخضوع والتذلل القلبي حصل خضوع البدن.. لأن النفس والروح والقلب عندما ينفتح على مصدر النور والكمال الإلهي يشعر بحاجته وضعفه وفقره أمام الغني المطلق والكمال المطلق.. عند ذلك تخشع النفس وتخضع أمام عظمة الخالق

---

(١) يوسف: ٥.

(٢) البقرة: ٢٠٨.

سبحانه وتعالى وتكف نفسها عن جميع ما كانت تتصوره كمالاً لها في عالم الدنيا والشهادة.. أي تشعر بنقصها وتتصل بالكامل المطلق.. فيكون المظهر المادي البدني تابعاً لذلك الحال النفسي والروحي.. واستناداً لذلك لا يمكن ترك المظهر المادي في هذا العالم بأي حال من الأحوال حتى لو وصل العبد إلى أرقى درجات العبودية.. إذ يستحيل أن ينفك المظهر المادي للعبادة عن واقعها المعنوي والنفسي ما دمنا في هذه النشأة.. فإذا كان العابد من الناحية الروحية والمعنوية ساجداً لله.. راكعاً لله.. كافاً للنفس عن الشهوات والملذات حقيقة فبالضرورة يكون بدنه راكعاً وساجداً وصائماً! وعليه لو وجدنا شخصاً يقول بأنني ساجد وراكع روحياً ومعنوياً ولا أحتاج إلى هذه الصلاة البدنية والحركات المادية وحصل عندي درجة من اليقين لا أحتاج معها إلى هذه العبادات البدنية المذكورة في الفقه!!!! فإن مثل هذا الشخص سيكون جاهلاً بحقيقة العبادة لأن الخضوع والتذلل الروحي لا ينفك في هذه النشأة عن مظهره المادي والبدني لأنه يعود إلى علاقات تكوينية وجودية تحكم نشأة الدنيا.. ومن الأمثلة العرفية التي تقرب هذا المعنى آنفاً نرى بعض الناس عندما يدخل على ملك أو سلطان كبير نراه يفقد السيطرة على

كلامه مثلاً أو تحصل لديه حالة ارتباك في تصرفاته البدنية وتظهر عليه حالات لم تكن ظاهرة عليه قبل أن يلاقي هذا السلطان سواء كان هذا السلطان دنيوياً أو دينياً.. وسبب ذلك أن نفس هذا الإنسان تتذلل أمام هذا السلطان وترى فقرها أو ضعفها فيظهر ذلك التذلل والخضوع على مظاهر البدن.. فالعلاقة بين ظاهر الإنسان وباطنه علاقة تكوينية وارتباط وجودي.. ولذلك كان أمير المؤمنين عليه السلام على أعلى درجات اليقين والكمال والارتباط بالله سبحانه وتعالى وهو القائل: لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً) ولكن لو سألنا: أين استشهد علي بن أبي طالب عليه السلام؟ الجواب: إنه كان يؤدي صلاة الفجر في مسجد الكوفة!! فقضى آخر لحظات حياته في هذا العالم في محراب العبادة.. ولم نسمعه يقول أنني على درجة من اليقين ولا أحتاج الصلاة والركوع والسجود!! كما يدور في هذه الأيام على بعض الألسن من هذه الخرافات والأوهام والانحرافات التي نسمعها هنا وهناك.

لا شك أن العبادة فعل روحي ونفسي، والنفس هي المديرة لهذا البدن، فإذا خشعت النفس خشع البدن.. وإذا ركعت ركع البدن أيضاً.. وإذا كفت نفسها عن الشهوات كذلك البدن

يكف نفسه عن الشهوات.. وهكـذا. وإذا وجـدنا انفـصالاً بـين الأمرين - في نشأة الدنيا- ممن يدعي العبادة فمن حقنا أن نـضع مائة علامة استفهام عليه! ومن المؤكد أن جميع الحالات النفسية يكون لها انعكاس على أجزاء البـدن كـالخوف والهلـع والخجـل والفرح إذ إن كل هذه الحالات الباطنية المعنوية نجد لها آثار عـلى لون الوجه أو حركات الأعضاء البدنية الأخرى كما هو معروف وجداناً.

فالعبـادة في جوهرهـا إذن اتـصال للـنفس بعـالم الغيـب والملكوت والطهارة الحقيقية.

وتتميماً لهذا المضمون وهو أن كل عبادة لها ظـاهر وبـاطن وأن روح العبادة وجوهرها هو حقيقتها الباطنية ننقل مـا حققـه الفيلسوف الإسلامي صدر الدين الـشيرازي في هـذا الموضـوع، حيث يقول:

(قد بان لك إن في الإنسان شيئاً من العالم الأسـفل وشـيئاً من العالم الأعلى، وأعني بالعالم الأسفل الدنيا وما فيهـا، وأعنـي بالعالم الأعلى الآخرة وما فيها، وكذلك في كل عمل من الأعـمال الدينية قشر ظاهر، ولبّ باطن، فالقشر متعلـق بالـدنيا، واللـب متعلق بالآخرة، فكما إن مقصود الشارع من طهـارة الثـوب ثـم

طهارة البدن إنما هو طهارة القلب وهو اللبّ الباطن، وطهارة القلب عن نجاسات الأخلاق الذميمة، كالكفر والحسد والبخل والإسراف وغيرها، فكذلك مقصود الشارع من صورة كل عبادة هو الأثر الحاصل منها في القلب.

قال صلى الله عليه وآله: (الصلاة عمود الدين).

وأصل الدين تصفية الروح عن الكدورات الشيطانية والهواجس النفسانية، والصلاة هي التعبّد للعلة الأولى والمعبود الأعظم والخير الأعلى، والتعبّد في الحقيقة عرفان الحق جلّ مجده والعلم به وبآياته بالسرّ الصافي والقلب النقي، فسرّ الصلاة – التي هي عماد الدين– هو العلم بوحدانية الله تعالى، ووجوب وجوده، وتنزه ذاته، وتقدس صفاته، وإحكام آياته، ومعرفة أمره وخلقه وقضائه وقدره وعنايته وحكمته وإرادته وقدرته ويده وقلمه ولوحه ورقمه وملائكته الكرام الكاتبين، وكتبه ورسله واليوم الآخر لمعاد عباده إليه ورجوع الخلائق لديه ومثول الأرواح والنفوس بين يديه مع الإخلاص له في العبودية.

وأعني بالإخلاص أن يعبد الله بلا مشاركة أحد، وأن يعلم ذاته وصفاته بوجه لا يبقى للكثرة فيه مشرعاً وللإضافة مترعاً.

ثم إنك لما قرع سمعك مراراً أن موجودات العالم الطبيعي والنشأة الدنيوية مثنوية، وحقيقة الإنسان من جملها لها ظاهر جلي وباطن خفيّ، ولها صورة مشهورة، وحقيقة مستورة، فهو منقسم إلى ظاهر متغير وباطن ثابت هو قلبه وسرّه، فالصلاة التي هي أشرف أعماله متقسمة إلى ظاهر خَلقي - وهو الرياضة المتعلقة بالظاهر- وباطن أمري - وهو الحقيقة الملتزم بها الباطن-.

والأول يجري مجرى السياسات للأبدان والرياضات للقوى والأدوات الصورية، به نياط نظام الجمعية التمدنية وقوام الشريعة المصلحية لإصلاح الخلق بحسب حالهم على وجه يؤدي إلى كمالهم وسلامة مآلهم. وكلتاهما واجبان عقلاً وشرعاً.

فالأولى كلف بها الشارع البالغ العاقل ليتشبه بدنه بما يختص به روحه من التضرع والخشوع إلى الجنبة العالية ليفارق البهائم بهذه الهيئة الشرعية، فإن البهائم متروكة عن الخطاب مسلمة عن العذاب، فأما الإنسان فإنه مخاطب ومحاسب، مثاب ومعاقب، إذ يجب عليه امتثال الأوامر الشرعية والعقلية، والاجتناب عن المناهي الشرعية والعقلية، فلما رأى الشارع الحكيم أن العقل المنور بنور معرفة الله أكرم عند الله، فقد ألزم الشارع النفس بالصلاة الحقيقية المجردة، وهي عرفان الله

وملكوته، وكلّف بدنه بالصلاة الجسمانية أثراً على تلك الصلاة وعنواناً لها، لتكون قواه العملية مشابهة لقواه الإدراكية.

فإذا كانت حركات القالب محاكية لما يتصوره القلب تكون أعمال القلب آكد وأصفى عن المزاحمة، فلذلك أوجب الشارع صورة الصلاة على الإنسان تتميما لصلاته الحقيقية ما دام في الدنيا، كما أثبت الله الوجود الجسدي ما دام في الدنيا وقاية لروحه وحفاظاً وإمساكاً له عن الخلل والفساد إلى حين بلوغه العقلي ووصوله إلى عالم المعاد.

ثم يقول: إن هذه الصلاة قد وجبت على سيدنا محمد ﷺ في ليلة قد صعد إلى العالم العلوي وتجرّد من بدنه وتنزه من أصله، ولم يبقَ معه من آثار حيوانية شهوة، ولا من لوازم الطبيعة قوة، ولا من الدواعي النفسانية بقية، فناجى ربه بقلبه وروحه فأمره الله بالصلاة فقال: يا محمد، المصلي مناجٍ ربه.

ولا يخفى على المتأمل العاقل أن مناجاة الله لا تكون بالأعضاء الجسمانية، ولا بالألسن الحسية، لأن هذه المكالمة لا تصلح إلا لمن يحويه مكان، ويعتريه حركة وزمان، أما الواحد المقدس الذي لا يحيط به مكان ولا يحويه زمان ولا يدركه حسّ أحد ولا يشار إليه بجهة من الجهات ولا يختلف حكمه في صفة

من الصفات ولا يتغير في وقت من الأوقات، فكيف يعاينه الإنسان المشكل المجسّم المحدود بجسمه وقوله وحسّه؟! وكيف يناجي في هذا العالم المركب الخروب من لا يعرف حدود جهاته ولا يرى جناب صفاته، فإن الموجود المطلق عن عالم المثل والمحسوسات بل المرتفع عن العقول القادسات، غائب عن الحواس، غير مشار إليه بالأخماس، ومن عادة الجسم والجسمي أن لا يناجي ولا يجالس إلا مع من يراه بالبصر، ويحسه بالحسّ، ويدركه بإحدى الخمس، وإذا لم ينظر إليه يعدّه غائباً ويكون بفقده عن المشاعر خائباً، فمن كان خارجاً عن هذا الباب، مقدساً عن طرفي هذا النفي والإثبات جميعاً، ومن المداخلة والمزايلة رفيعاً فمناجاته بإحدى الظواهر والآلات أكمل المحالات وأفحش الخرافات والموهومات.

فتبين أن الصلاة الحقيقية التي تنهى عن فحشاء القوة الشهوية البهيمية، ومنكر القوة الغضبية السبعيّة، وبغي القوة الوهمية هي المعارفة الربانيّة والمشاهدة الإلهية والمكاملة العقلية، وهي التضرع بالنفس الناطقة نحو الإله الحق والموجود المطلق)[1].

---

(١) تفسير القرآن الكريم، صدر الدين الشيرازي، انتشارات بيدار، قم، ج٧، ص٢٤٠-٢٤٧.



● التفكر من أعظم العبادات

إذن، بناء على أن روح العبادة هي اتصال النفس بعالم الغيب والملكوت سوف نتقدم خطوة أخرى في بحث العبادة.. وهي أن التفكّر في آيات الله وآلائه وصفاته.. وآياته الآفاقية والنفسية هو من أعظم العبادات وهو مفتاح المعارف الإلهية.. لأن التفكر فعل روحي ونفسي ولا يمكن أن يتصل الإنسان بعالم الغيب من خلال بدنه المادي بل يتصل من خلال الجزء المجرد عن المادة وهي الروح والنفس المدبرة له.. ومن هنا يتضح لنا معنى الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في بيان عظمة التفكر وآثاره ونتائجه في إيمان الإنسان وتكامله، وقبل ذلك نفهم التركيز القرآني على موضوع التفكر في آيات الله سبحانه. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، وقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ﴾ وعن أمير المؤمنين عليه السلام: (نبّه قلبك بالتفكّر)، وعن الإمام الصادق عليه السلام: (أفضل العبادة إدمان التفكر في الله وفي قدرته)، وعن الإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) النحل: ١١.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(ليست العبادة بكثرة الصلوات والصوم، إنما العبادة التفكر في أمر الله).

وعن الصادقعليه السلام أيضاً: (كان أكثر عبادة أبي ذر رحمه الله التفكر والاعتبار)، وعنهعليه السلام أيضاً: (تفكر ساعة خير من عبادة سنة إنما يتذكّر أولوا الألباب).

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: (ولو فكروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق - معرفة الله- وخافوا عذاب الحريق). وعنهعليه السلام: (التفكر يدعو إلى البرّ والعمل به).

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله: إن تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة أو سبعين سنة في بعض الروايات.

ومن خلال التأمل في مضمون هذه الروايات نجدها تؤكد أن العبادة الحقيقية هي ذلك الارتباط والتفكر والاتصال بعالم الغيب، وأن هذه العبادة ا المادية المتعلقة بالبدن والتي هي مظهر العبادة الروحية تابعة لها فبقدر الاتصال الروحي والنفسي تكون هناك قيمة لأفعال العبادة البدنية، ومن هنا نعرف كيف تتم هذه المقايسة المذكورة في الروايات السابقة، فإننا نعلم أن عبادة سبعين سنة هي أكثر من الناحية الكمية والمادية من تفكر ساعة، نجد أن الإنسان يركع ويسجد ويصوم لسنين طويلة ومع ذلك

يقول الإمام عليه السلام أن تفكر ساعة أفضل من تلك العبادة الطويلة!! إن هذه الأفضلية تعود إلى مقدار الاتصال الروحي الذي تحققه العبادة.. وهو الذي يتحقق بالتفكر.. والتفكر على درجات ومستويات مختلفة، بعضه مرتبط بالآيات الأنفسية ومن هنا ورد أن: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)، وبعضه الآخر مرتبط بالآيات الآفاقية.. إذ التفكر يقود إلى المعرفة.. والمعرفة تقود إلى العبادة الحقيقة، ولذلك لم تكن كثرة العبادة البدنية مقياساً للصلاح والاتصال بالله سبحانه وتعالى.

بل ورد في الروايات المعتبرة تفضيل مذاكرة العلم على العبادة البدنية، فعن أبي ذر الغفاري، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا ذر الجلوس ساعة عند مذاكرة العلم أحب إلى الله من قيام ألف ليلة يصلي في كل ليلة ألف ركعة...!!

وذلك لأن تذاكر العلم يقود إلى المعرفة.

- **القلب هو النافذة نحو عالم الغيب والكمال**

والمعرفة تؤكد حصول الاتصال بالله سبحانه وتعالى من خلال النافذة المعنوية الموجودة عند الإنسان وهي القلب المنفتح على عالم الغيب والحقائق الإلهية.. ومن هنا ركزّ القرآن الكريم على دور القلوب وأثرها في إيمان الإنسان من خلال عشرات

الآيات الكريمة: قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١]، وقال: ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢]، وقال: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣]. فالقلب هو النافذة التي يصل من خلالها النور الإلهي وتجليات الكمال الحقيقي.. والسبب الرئيسي لإغلاق هذه النافذة هو كثرة الذنوب، قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤]، والرين يعني الصدأ الذي يحيط بالقلب فيغلقه وتنطفئ فيه شعلة الإيمان.

والاتصال بمصدر النور والكمال من خلال التفكر القلبي والروحي يختلف من شخص لآخر كماً ونوعاً إذ أن الإنسان في عالم المادة والدنيا تحوط به الشهوات والأهواء(النجاسات الدنيوية) فلكي لا نتنجس كالماء القليل الذي يلاقي النجاسة ولكي نتصل بماء معتصم يحفظ لنا طهارتنا الذاتية وجدت هذه العبادات لتحقيق هذا الاتصال، فتارة يكون الاتصال ١٠٪ مثلاً

---

(١) الحج: ٤٦.
(٢) الشعراء: ٨٨-٨٩.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) المطففين : ١٤.

ويكـون هـذه المقـدار هـو الجهـة النورانيـة الطـاهرة في وجـود الإنسان، وتـارة أخـرى يكـون أكثـر.. وهكـذا.. فتتسع دائـرة النورانية والطهـارة في الـنفس كلّـما زاد الاتـصال بـالله سـبحانه وتعالى.

● العبادة ومقام قرب الفرائض والنوافل

ويستمر الإنـسان في التـدرج في مراتـب الكـمال والقـرب الإلهي إلى أن يصل إلى مستوى يكون كل وجوده إلهياً ولا توجـد فيه أي مساحة لشيء يشغله عـن الله سـبحانه.. وبتعبـير القـرآن يصير (مخلصاً) أي يكـون خاليـاً مـن الـشوب مطلقـاً. وفي هـذا المجال يأتي الحديث القدسي المشهور: (ما زال عبدي يتقـرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت - أي الله سـبحانه- بـصره الذي يبصر به وسمعه الذي يسمع به ويده التي يبطش بها) هـذا ما يسمى قرب النوافـل فيـصبح الإنـسان العابـد بكـل وجـوده روحياً وبدنياً وجوداً إليها.

أما في باب قرب الفرائض فيقول: (ما زال عبـدي يتقـرب إليَّ بالفرائض - أي الواجبات- حتى أحبه، فإذا أحببتـه صـار- أي الإنسان- بصري الذي أبصر بـه وسـمعي الـذي أسـمع بـه ويدي التي أبطش بها)!! فيكون الإنـسان يـد الله.. وسـمع الله..

وبصر الله.. وتكون جميع أفعاله روحياً وبدنياً تجلياً لله سبحانه وتعالى.. أي أن الإنسان في هذه الدرجة من العبادة يصل إلى مرحلة الفناء وتذهب (إنيّته) فلا يكون لديه بصر وسمع خاص به وإنما بصره وسمعه بصر الله وسمع الله!! وهناك بعض الشواهد القرآنية التي تؤكد هذه الحقيقة والمرتبة العظيمة في القرب الإلهي..

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1]. فنسب الرمي إلى الله سبحانه وتعالى مع أن الرامي هو النبيﷺ في واقعة بدر عندما رماهم بكفٍ من الحصا.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[2] مع أن المؤمنين كانوا يبايعون النبيﷺ وكانت يد النبي المباركة فوق أيديهم أثناء المبايعة كما هو معلوم.. ولكن الله سبحانه وتعالى اعتبر أن اليد التي يبايعونها هي يد الله!! وليس ذلك إلا أنها فانية في الإرادة الإلهية.. وهذه نتيجة طبيعية في حقيقة التوحيد إذ يكون الإنسان بهذه الدرجة بجميع وجوده إلهياً ربانياً.. ولذلك نحن في البحث العقائدي نعتقد أن العصمة

---

(١) الأنفال: ١٧.

(٢) الفتح: ١٠.

الثابتة للأنبياء والأئمة عليهم السلام هي مرتبة تكوينية وجودية يصلها الإنسان بالتكامل في درجات القُرب الإلهي.. واستناداً لذلك يمكن أن نفهم مضمون الروايات التي تقول: (رضا الله رضانا أهل البيت) أي أن الشخص الذي يرضى عنه أهل البيت عليهم السلام يكون الله راضياً عنه لا محالة، فالعصمة ليست أمراً تشريعياً أو اعتبارياً بل هي مرتبة تكوينية في مراتب الكمال يصلها الإنسان إذا كان عبداً حقيقياً لله سبحانه وتعالى أي أنها تتحقق من خلال العبودية الحقّة لله سبحانه وتعالى.. ولذلك نرى القرآن الكريم عندما يريد أن يتكلم عن مقامات النبي الأكرم صلى الله عليه وآله فإنه يذكرها من خلال صفة العبد، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾[1]، وقال: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا**﴾[3]، وكذلك نقول في الشهادتين: أشهد أن محمداً عبده ورسوله) أي نقدم مقام العبودية على مقام الرسالة.

---

(١) الإسراء:١.

(٢) الفرقان:١.

(٣) الكهف:١.

• عبدي أطعني تكن مثلي

وفي هـذا المجـال أيـضاً يمكـن أن نفهـم بوضـوح معنـى الحديث القدسي المنقول في كلمات أهل المعرفـة (عبـدي أطعنـي تكن مثلي تقل للشيء كـن فيكـون) فالمقدمـة الأساسـية في هـذا المضمون هي (عبدي أطعني) بالطاعـة المطلقـة تحـصل النتيجـة المذكورة وهي (تقل للشيء كن فيكون)، فالعبادة الحقيقية تجعـل الإنسان العابد بهذه الدرجـة التكوينيـة وهـذا التـأثير الكبـير في الوجود. ومن هنا ذكر أهل المعرفة أن كل عبادة من العبادات لهـا مراتب مختلفة تختلف شدةً وضعفاً ومعرفةً وعمقاً وقربـاً مـن الله عز وجل.

• مراتب العبادة عند أهل الشريعة والطريقة الحقيقة

ومن باب المثال نذكر ما قاله السيد حيدر الآملي قدس سره وهـو من العرفاء المعروفين في مدرسة أهل البيـت عليهم السلام، عـن الوضـوء ومراتبه العبادية، قال:

أما وضـوء أهـل الـشريعة، فـذلك معلـوم مـشهور عنـد الخاص والعام، وأفعالـه الواجبـة خمـس: النيـة، غـسل الوجـه، وغسل اليدين، ومسح الرأس، ومسح الرجلين.

وأما وضوء أهل الطريقة، فالطهـارة عنـدهم بعـد القيـام

بالطهارة الشرعية، عبارة عن طهارة النفس من رذائل الأخلاق وخسايسها، وطهارة العقل من دنس الأفكار الرديئة، والشبه المؤدية إلى الضلال والإضلال، وطهارة السر من النظر إلى الأغيار، وطهارة الأعضاء من الأفعال غير المرضية عقلاً وشرعاً.

وأما أفعال هذه الطهارة المعبّر عنها بالوضوء:

فالنية فيه: أن ينوي المكلف بقلبه وسره أنه لا يفعل فعلاً يخالف رضا الله تعالى بوجه من الوجوه، وتكون جميع عباداته لله خالصة دون غيره، لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾[1].

وغسل الوجه: وهو أن يغسل وجه قلبه عن حدث التعلُّق بالدنيا وما فيها، فإن الدنيا جيفة وطلابها كلاب، فالطالب والمطلوب نجسان ولهذا قال عليه السلام: (حب الدنيا رأس كل خطيئة، وترك الدنيا رأس كل عبادة)، وقال عليه السلام: (يا دنيا غرّي غيري فإني قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها).

وغسل اليدين: وهو غسلهما وطهارتهما عما في قبضتيهما من

(١) الأنعام: ١٦٢-١٦٣.

النقد والجنس والدنيا والآخرة، فإن طهارتها حقيقة ليس إلا بترك ما في تصرفها وحكمها.

ومسح الرأس: وهو أن يمسح رأسه الحقيقي المسمى بالعقل أو النفس، أي يطلع عليها حتى يعرف أنه بقي عندهما شيء من محبة الدنيا وما يتعلق بها من المال والجاه.

ومسح الرجلين: وهو أن يمنعهما عن المشي بغير رضا الله وطاعته ظاهراً وباطناً، والمراد بالرجلين في الظاهر معلوم، وأما في الباطن هما عبارة عن القوة النظرية والعملية عند البعض، وعن القوة الشهوية والغضبية عند الآخرين، وإلى مثل الوضوء المضاف إلى الوضوء الأول أشار النبيﷺ وقال: (الوضوء على الوضوء نور على نور)، أعني صفاء الظاهر مع صفاء الباطن على الوجه المذكور فهو نور على نور، أي نور البصيرة على نور الشرع سبب صفاء الظاهر والباطن، وموجب ثبات السالك على الطريق المستقيم في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1]، رزقنا الله الجمع بينهما الإقامة على كل واحد منهما.

---

(١) إبراهيم: ٢٧.



● **وأما وضوء أهل الحقيقة**

فالوضوء عندهم المعبر عنه بالطهارة عبارة عن طهارة السر عن مشاهدة غير الله مطلقاً.

والنية فيها: وهي أن ينوي السالك في سرّه أنه لا يشاهد في الوجود غيره ولا يتوجه إلا إليه، لأن كل من توجّه في الباطن إلى غيره فهو مشرك بالشرك الخفي، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾[1] . فطهارته لا تكون إلا بهذه النية التي هي عبارة عن التوحيد الحقيقي النافي للشرك مطلقاً، لأنه معلوم، ومقرر أن الخلاص من الشرك جلياً كان أو خفياً لا يمكن إلا بالتوحيد، ألوهياً كان أو وجودياً.

وغسل الوجه: عبارة عن طهارة الوجه الحقيقي ونظافة سرّه عن دنس التوجُّه إلى الغير، بحيث لا يشاهد غير وجهه الكريم المشار إليه في قوله: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**﴾[2]، ولا يعرف غير ذاته المحيط المومى إليه في قوله: ﴿**أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ**﴾[3]، وعن هذا التوجّه أخبر من لسان إبراهيم عليه السلام بقوله:

---

(١) الجاثية:٢٣.

(٢) البقرة: ١١٥.

(٣) فصلت: ٥٤.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وغسل اليدين: عبارة عن عدم الالتفات إلى ما في يديه من متاع الدنيا والآخرة، من الدنيا كالمال والجاه والأهل والولد، ومن الآخرة كالعلم والزهد والطاعة وما يحصل منها كالثواب والجنة والحور والقصور، لأن رؤية الطاعة والعبادة واستحقاق التعظيم بها عند أهل الله معصية، وإلى ذلك أشار صلى الله عليه وآله: (الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، وهما حرامان على أهل الله).

ومسح الرأس: عبارة عن تنزيه سرّه وتقديس باطنه الذي هو الرأس الحقيقي عن دنس الأنانية وحدث الغيرية الحاجب والحاجز بينه وبين محبوبه.

وقد سبق أن كل من شاهد الغير فهو مشرك، وكل مشرك نجس، والنجس ليس له طريق إلى عالم القدس والحضرة الإلهية لقوله: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[2].

---

(١) الأنعام: ٧٩.

(٢) النساء: ٤٨.

ومسح الرجلين: عبارة عن تنزيه قـوتي العمليـة والعلميـة عن السير إلا بالله وفي الله، لأنهما كالقدمين والرجلين في الظـاهر لأنه بهما يسعى في طلب الحق وبهما يـصل إليـه وعنـد التحقيـق: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِـالْوَادِي الْمُقَـدَّسِ طُـوًى﴾[١]، إشـارة إلـيهما، أعني إذا وصلت إلينا بواسطتهما فدعهما، فإنك بعد هذا ما أنـت محتاج إليهما، ومعلوم عند الوصول يجب طرح كل ما في الوجـود سيما القوى والحواس وما اشتمل عليهما ظاهراً وباطناً.

وعند البعض المراد بالنعلين الدنيا والآخرة، وعند البعض عالم الظاهر والبـاطن، وعنـد الـبعض الـنفس والبـدن، والكـل صحيح وفي مثل هذا الحال وهذا المقام ورد في الحديث القـدسي: (لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببتـه كنـت سمعه وبصره ولسانه ويده ورجلـه، فبـي يـسمع وبي يبـصر وبي ينطق وبي يبطش وبي يمشي)[٢]، إشارة إلى السير بالله الـذي هـو مقام التكميل دون الكمال[٣].

---

(١) طه: ١٢.

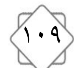
(٢) الكافي: ج٢، ص٣٥٢، حديث ٧٦٨.

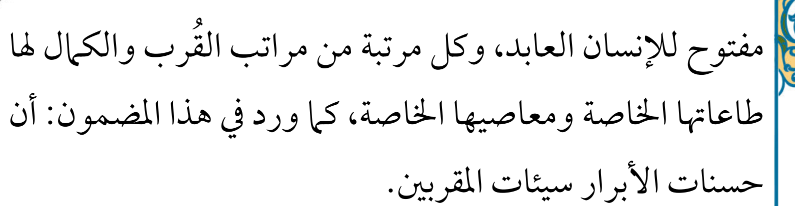
(٣) تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم، تـأليف الـسيد حيـدر الآمـلي، ج٤، ص١٥-٢٦.

وهكذا الحال في جميع العبادات تكون لها هذه المراتب التي تختلف آثارها ونتائجها من مرتبة إلى أخرى، فالصوم الفقهي عند أهل الشريعة مثلاً هو كف النفس عن المفطرات المذكورة في كتب الفقه، ولكنه عند أهل الحقيقة مثلاً هو كفّ النفس عما سوى الله تعالى.. وكلما نظر والتفت العبد إلى شيء غير الله عز وجل فقد أفطر لأن صيامه انخرم..

ولابد من الإشارة إلى أن هذا المضمون وهذه المراتب المذكورة للعبادات لا بد أن نسندها إلى اختلاف درجات الإيمان التي بيّنها الإمام الصادق عليه السلام بقوله: (إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلّم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحد لست على شيء حتى ينتهي إلى العاشر).

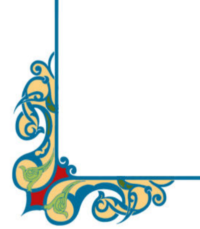
لأن المفروض من صاحب الاثنين أن يمد يده إلى صاحب الواحد ويرفعه في درجات التكامل ولا يقول له أنت لست على شيء وأن إيمانك ناقص، وعندما نسمع مراتب الوضوء عند أهل الحقيقة لا نفهم منها أن وضوئنا باطل ولا قيمة له! كلا، فإن هذا الفهم غير صحيح، بل وضوء الشريعة صحيح ومقبول عند الله تعالى بشروطه ولكن طريق الكمال نحو وضوء أعمق وأفضل

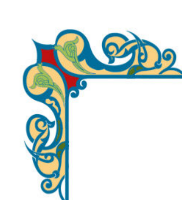




مفتوح للإنسان العابد، وكل مرتبة من مراتب القُرب والكمال لها طاعاتها الخاصة ومعاصيها الخاصة، كما ورد في هذا المضمون: أن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

والحمد لله رب العالمين





المبحث الخامس

• أنواع العبادات التي تقوم بها مخلوقات الكون

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

في ضوء الآية الكريمة التي افتتحنا بها البحث نحاول أن نؤكد على الحقيقة التكوينية للعبادة، أو ما يسمى بالبعد التكويني في العبادات، وأن هذا البعد هو الذي يوضح لنا أهمية البعد التشريعي في العبادة يبين أهمية العبادة الشرعية والظاهرية في حياة الإنسان بل في حياة جميع مخلوقات الكون، بعبارة أخرى إذا استطعنا - ولو بدرجة ما- أن نفهم البعد التكويني للعبادة سوف تتضح لنا حكمة العبادات الظاهرية.

وقد ذكرنا في بحوث سابقة أن العبادة بمعنى الارتباط بالله سبحانه وتعالى شاملة لجميع المخلوقات ولا تختص بالإنسان

---

(١) فصلت: ٣٩.

وحده، وعند مراجعة الآيات القرآنية نجد أن هناك أربعة أنـواع من العبادة ينسبها القرآن إلى المخلوقات، وهي:

• التسبيح

العبادة الأولى: التسبيح، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١]، ومـن الملفـت للنظـر أن هـذه الآيـة الكريمة افتتحت بها ثلاث سور قرآنية هي: الحديد والحشر والصف.

وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٢].

والتسبيح معناه تنزيه الشيء ونسبته إلى الطهـارة والنزاهـة من العيوب والنقائص، وهذه الآيات الكريمة تقرر أن جميع مـن في السموات والأرض يسبح الله سبحانه وتعالى وينزهه عـن كـل عيب ونقص، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٣].

• أنواع التسبيح

وعند التأمل في الآيات الخاصة بالتسبيح في القـرآن نجـد

(١) الحديد:١.

(٢) الجمعة:١.

(٣) الإسراء: ٤٤.

أنها تنسب التسبيح لجميع مخلوقات الكون.. وكأن الكون بملأه الأعلى وبسماواته وأرضه ينزّه الله سبحانه وتعالى ويقدسه..

فعن تسبيح الملائكة قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[1]، وقال: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْئمُونَ﴾[2]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3].

وعن تسبيح الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يقول القرآن: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[4]، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾[5]، وقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[6]، وقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾[7].

وعن تسبيح الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى عن لسان زكريا:

---

(١) الصافات: ١٦٦.

(٢) فصلت: ٣٨.

(٣) غافر: ٧.

(٤) الحجر: ٩٨.

(٥) الإنسان: ٢٦.

(٦) طه: ١٣٠.

(٧) ق: ٤٠.

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[١]، وفي نجاة يونس عليه السلام قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ﴾[٢].

وعن تسبيح المؤمنين، قال تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[٣]، وقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[٤].

وعن تسبيح الطيور، قال تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[٥]، وغير ذلك من الآيات التي نقلت تسبيح جميع الكائنات الأخرى.

- **الحمد**

العبادة الثانية: الحمد، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٦]، والحمد عبادة.. وهي منسوبة إلى جميع الأشياء حسب ما تقرره هذه الآية الكريمة.

ومن عظيم مرتبة الحمد ومنزلته أن الله سبحانه وتعالى

(١) مريم: ١١.
(٢) الصافات: ١٤٣.
(٣) الأحزاب: ٤١-٤٢.
(٤) النور:٣٦.
(٥) النور:٤١.
(٦) الإسراء:٤٤.

افتتح به سورة الفاتحة التي هـي فاتحـة الكتـاب، فقـال في أولهـا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١]، فلله سبحانه كل الحمد وهو وحـده يستحق الحمد حقيقة، لأن الحمد هو الثناء عـلى الفعـل الجميـل الاختياري، والله سبحانه وتعـالى خـالق كـل شيء، وهـو الـذي أحسن كل شيء خلقـه، فالحسن والجـمال ثابتـة للخلـق، وهـو سبحانه مختار في فعله وقدرته ونفوذ أمره في خلقـه ولـه الأسـماء الحسنى.. فهو تعالى جميـل في أفعالـه.. وجميـل في أسـمائه.. ولـه يرجع كل جميل وحسن.. إذن فالحمد كله لله سـبحانه وتعـالى لا محمود غيره. وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة بقولهم: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، فالكون كلـه حامـد لله سبحانه وتعالى.

● **السجود**

العبادة الثالثة: السجود، وهو مـن أعظـم العبـادات التـي يثبتها القرآن لجميـع الكائنـات والمخلوقـات.. وأن جميـع مـا في الكون ساجد لله سبحانه وتعالى، وهذا المعنى هـو الـذي تؤكـده آيات السجدة الأربع الواردة في القرآن الكـريم حيـث يتوجـب

(١) الفاتحة:٢.

(٢) يونس: ١٠.

على الإنسان المؤمن أن يسجد عند قرائتها أو الاستماع إليها.. ولـذلك سنضطر للسجود أثناء الدرس عند قراءة هذه الآية الكريمة..

● **السجود الكوني وآيات السجدة**

وهذا المعنى هـو الـذي نريـد أن نؤكـده .. وهـو أن جميـع مخلوقات عالم الإمكان سـاجدة لله سـبحانه وتعـالى وإن لم نكـن نشعر بذلك.. وآيات الـسجدة في القـرآن مـن مظـاهر الـسجود العام في الكون.. كأن لسان حالها يقـول: يـا أيهـا الإنـسان إذا لم تكن ساجداً في حياتك لله سبحانه وتعالى فعلى الأقل كن ساجداً مع المخلوقات في هذه المواضـع الأربعـة وهـي آيـات الـسجدة، ومن هنـا يقـول العرفـاء أن الحيـاة في حقيقتهـا لا بـد أن تكـون سجدة طويلة.. أي يكون الإنسان العارف سـاجداً لله في أعمالـه وأقواله وظاهره وباطنه وجميع مستويات وجوده حتى في يقظتـه ونومه.. فتكون حياته عبارة عن سجدة طويلة.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَى أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِـيرٌ مِـنْ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْـرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ**﴾[1].

(١) الحج:١٨.

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يوجه الخطاب إلى النبي الأكرم ﷺ: (ألم تر...) ألا ترى أن المخلوقات كلها ساجدة لله عز وجل؟ وكأن النبي ﷺ يرى السموات والأرض أي أن هذا الأفق الوجودي الواسع والعظيم يراه النبي الأكرم.. ولذلك يقول له أنظر لهذا السجود الكوني الشامل! السموات.. والأرض .. ومن فيهن.. والشمس.. والقمر.. والنجوم .. والجبال .. والشجر.. والدواب.. وكثير من الناس.. ثم تقول الآية: ﴿**وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾، ومن الواضح أن المقصود من الذي يهينه الله هو الإنسان الذي لا يسجد، لأن الآية تتكلم عن السجود! فما هي العلاقة بين السجود لله وبين الإهانة؟! والجواب: أن الذي يترك السجود لله سبحانه وتعالى سوف يهان ويذلّ لأن الإنسان لو ترك هذا السجود وسجد لمليون صنم من الآلهة المصطنعة والمزيفة في حياته سوف لا يكرموه.. بل إن الأصنام المصطنعة سواء كانت مادية أو معنوية سوف تسلب كرامة الإنسان وتهدم عزته بسبب فقدانها للكمال الحقيقي، بخلاف السجود لله الواحد الأحد الغني المطلق.. والكمال اللامتناهي.. فإن السجود له والارتباط به سيعطي الكرامة والعزة الحقيقية للساجد.. ولذلك تقول

الآية: ﴿وَمَنْ يُهِنْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْـرِمٍ﴾.. إذ لا كرامة للإنسان إلا بالسجود الحقيقي للمعبود الحقيقي عز اسمه.. وإلا ضاع في ذلّة ومهانة الآلهة المزيفة.

• **السجود لآدم سجود لله عز وجل**

ومن هنا يتضح لنا المقام العظيم للسجود عند الله سبحانه وتعالى، حيث صار السجود هو الاختبار الأعظم والأكبر والأهم للخليقة في الملأ الأعلى حيث أمر الله سبحانه وتعالى ملائكته وجميع ملأه الأعلى بالسجود لخليفته آدم الذي علمه الأسماء كلها كما ينص على ذلك القرآن الكريم .. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لأَدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾[١].

إذن عدم السجود وهو الذي عبرت عنه الآية بـ(الاستكبار) هو السبب الحقيقي للشقاء والخروج من الرحمة الإلهية والدخول في الهلاك واللعنة الأبدية.. (أبى واستكبر) .. وفي آية أخرى: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[٢].

---

(١) البقرة: ٣٤.

(٢) ص: ٧٧-٧٨.

وبالمقابلة نفهم أن السبب الحقيقي في البقاء في حصن الرحمة الإلهية هو السجود لله عز وجل.. ولذا قال تعالى أيضاً: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾[1].. ولذا أصبح إبليس رمز الشر والباطل في الكون لأنه فشل في اختبار السجود!! ومن هنا فإن طريق التكامل الحقيقي للإنسان هو أن يكون من الساجدين[2].

• الصلاة

العبادة الرابعة: الصلاة، وهي من العبادات التي أثبتها القرآن الكريم للمخلوقات جميعاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[3]، فـ(كل) ترجع إلى قوله: (من في السموات والأرض والطير) أي جميع المخلوقات عندها صلاة وتسبيح، ولا يوجد خصوصية للطير، وإنما ورد

---

(١) الحجر: ٣٢.

(٢) وفي ضوء ذلك نفهم قوله تعالى في حق النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ الشعراء: ٢١٧-٢٢٠.

(٣) النور: ٤١.

المثال بذكر الطير لحكمة موجودة في خلق الطيور، وإلا فإن الصلاة في الآية الكريمة ثابتة لجميع من في السموات والأرض، فالطيور والحيوانات والحجر والهواء والشجر ومخلوقات الكون الأخرى كلها مصلية مسبّحة لله عز وجل، ومن الجدير بالذكر أن معنى الصلاة هنا هو الدعاء وأن صلاة كل شيء بحسبه، وليس بالضرورة أن يكون معنى وحقيقة الصلاة عند جميع المخلوقات واحداً.

أما الحكمة من ذكر الطيور خاصة في التسبيح والصلاة فلعله يعود إلى عجيب الخلقة الإلهية التي صنعت الطير.. فكلنا يعلم بهجرة الطيور وأن لهذه الهجرة مواسم خاصة وأماكن في العالم تنتقل منها وإليها الطيور.. وقد يكون الانتقال من دولة إلى أخرى .. ومن قارة إلى أخرى.. ومن المعلوم أن الطيران في هذه المساحات والمسافات الشاسعة والوصول إلى الهدف بحاجة إلى إمكانات كبيرة ودقيقة من الطائر، فنرى الآن مثلاً أن الطيار الذي يقود الطائرة المدنية من دولة إلى دولة أخرى يحتاج إلى تكنولوجيا متطورة وأجهزة ذات إمكانية هندسية وفنية في غاية الدقة والصنع لكي يضبط مسار الطائرة من بلد الإقلاع إلى بلد الهبوط.. فهناك ترددات خاصة لكل دولة.. وإشارات خاصة

لجميع المطارات الدولية.. والعلم بوقت الهبوط وعبور الحدود الدولية.. ودرجات الحرارة.. وتقلبات الطقس.. والمسافة عن سطح البحر وغيرها من ضروريات قيادة الطائرات كما هو معلوم عند أهل الاختصاص.. في حين نرى الطيور تهاجر من قارة إلى قارة أخرى.. بل من قطب إلى قطب آخر في الكرة الأرضية.. وأنها تطير على شكل مجموعات متناسقة وأعداد كبيرة جداً.. هل سألنا أنفسنا كيف يتواصلون؟! وكيف يأكلون ويشربون؟! وكيف يضبطون مسارات الطيران؟! وكيف يعرفون أن الجو ودرجات الحرارة والطقس ملائم للطيران أم لا؟! هل توجد عندهم تعليمات.. أو مضيفات!! أو مطارات مثلاً؟! هل توجد أبراج مراقبة تعطيهم هذه المعلومات؟ كلا.. بالطبع.. ونستنتج من ذلك أن الطيور التي تمتلك هذه القدرة الإدراكية في العالم المادي من المؤكد أنها تدرك ارتباطها بالله سبحانه وتعالى وتدرك حاجتها للغني المطلق فهي ساجدة مسبّحة مصلية..

• الخشوع

الخشوع أثر آخر من آثار العبادات يثبته القرآن لمخلوقات أخرى غير الإنسان، ولا شك أن الخشوع أثر من آثار العبادة



والارتباط بالله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً﴾[٢].

فالجبل ليس خاشعاً فقط وإنما متصدع من خشية الله.. وعند التأمُّل في أمثال هذه الآيات الكريمة نخرج بنتيجة حاصلها أن العبادة شيء سارٍ في جميع المخلوقات.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٣]، فالسماء والأرض مطيعان، والطاعة عبادة.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤].

في هذه الآية يشبه القرآن القلوب القاسية بالحجارة ثم

---

(١) الحشر: ٢١.

(٢) فصلت: ٣٩.

(٣) فصلت: ١١.

(٤) البقرة: ٧٤.

يستدرك ويقول: (أو أشد قسوة) من الحجارة؟! فنسأل: لماذا تكون القلوب أشد قساوة من الحجارة؟

الجواب: أن الآية المذكورة توضح لنا ثلاث صفات للحجارة التي نراها نحن قاسية وصلبة وجافة!! القرآن يقول: كلا، بل للحجارة صفات تكون فيها أعظم من القلوب القاسية! وهذه الصفات هي:

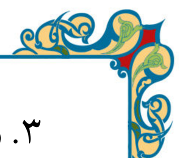
١. إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار.

٢. إن من الحجارة لما يشّقّق فيخرج منه الماء.

وفي ذكر هاتين الصفتين للحجارة حكمة عظيمة للإنسان المتدبر، وهي أن هذه الحجارة التي تحسبونها في نظركم جافة جامدة صلبة قاسية، تتشقق ويخرج منها الماء.. وتتفجر منها الأنهار!! ولو ضممنا ذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] لظهر لنا جلياً أن القرآن يريد أن يقول إن هذه الحجارة تنبع منها الحياة.. ولذلك هي أعظم من القلب القاسي الذي سوّدته الذنوب.. لأن هذا القلب انطبع بالرّين وصار مظلماً.. ميتاً.. فكيف نتوقع منه أن يعطي الحياة كالحجارة؟! ولذلك تأتي الصفة الثالثة للحجارة لأنها في حقيقتها حيَّة، وهذه الصفة هي:

---

(١) الأنبياء: ٣٠.



٣. وإن من الحجارة لما يهبط من خشية الله.

نعم! فما دامت هذه الحجارة تتشقق ويخرج منها الماء الذي جعلنا منه كل شيء حي.. إذن هي نابضة بالحياة وتدرك حاجتها وفقرها للغني المطلق سبحانه وتعالى فتكون النتيجة أنها: تهبط من خشية الله!! بخلاف القلوب القاسية المظلمة التي ران عليها صدأ الذنوب والمعاصي فإنها لا تهبط من خشية الله.. وتكون كما وصفها الله عز وجل في آية أخرى حيث قال: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[1]، ثم قال تعالى في وصفهم: ﴿**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**﴾[2].

إذن الحجارة عابدة.. خاشعة لله سبحانه وتعالى.

• تعريف الخشوع

ذكر العلامة الطباطبائي قدس سره تعريفاً لحقيقة الخشوع، حيث قال: (الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر، بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه إليه، والظاهر أنه من صفات القلب حيث ينسب إلى الجوارح بالعناية).

أي أن المخلوقات إذا شعرت وأدركت أنها مغلوبة مقهورة

(١) البقرة: ١٠.

(٢) البقرة: ١٨.



قبال من هو أعظم منها ستنقطع عن غيره وتتوجه إليه توجهاً كلياً فتحصل حالة الخشوع بسبب إدراك عظمة القاهر وعدم التوجه إلى غيره، وهي صفة خاصة في القلب.. أي أنه أمر معنوي يحصل في نفس الخاشع، وإذا نسب الخشوع إلى الجوارح فإن ذلك بنوع من العناية كما قال: (وخشعت الأصوات).

وهناك أمور أو حالات تحصل عند الخاشع ليس هي الخشوع نفسه، بل هي آثار للخشوع. مثل الخوف فإنه أثر من آثار الخشوع عندما يكون المقهور قبال القاهر.. أو المغلوب قبال الغالب.. وكذلك التذلُّل فإنه أثر للخشوع.. وكذلك سكون الجوارح وغضّ البصر وخفض الجناح.. فكل هذه المعاني إنما هي آثار لتلك الحالة القلبية التي تحصل عند الخاشع. والقرآن الكريم ينسب الخشوع للأرض ﴿**تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً**﴾[1] وينسبه إلى الحجارة ﴿**وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾[2] وينسبه للجبل ﴿**لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾[3]، ومن هنا يتضح لنا جلياً معنى الخشوع في قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ**

---

(١) فصلت: ٣٩.

(٢) البقرة: ٧٤.

(٣) الحشر: ٢١.

﴿**الْعُلَمَاءُ**﴾[(١)] لأن العلماء حقيقة هم الذين يدركون ويشعرون بهذه الحالة القلبية الخاصة التي تحصل للمقهور قبال القاهر.. فكل الوجود والموجودات عابدة ساجدة خاشعة لله سبحانه وتعالى.. وبالتالي يكون الحديث عن العبادة واسعاً شاملاً لقافلة الموجودات بأجمعها ولا يكون مختصاً بالعبادات الخاصة كالصوم والصلاة مثلاً، ولا شك أن الإنسان هو سيد قافلة الموجودات فلا بد أن يكون هو العابد الأول.. والساجد الأول .. والخاشع الأول والأكبر.. ﴿**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[(٢)].

وفي معنى الخشوع أيضاً نذكر ما قاله سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر قدس سره. حيث قال: (من جملة الأمور المستحسنة والمطلوبة في العبادة: الخشوع، وهو لغة: الضراعة، وحقيقته: حالة نفسية أو قلبية توجد في الذليل تجاه العظيم، نتيجة شعوره بالذلة والتصاغر أمامه، وهذا معنى عام، غير أن المتعارف لدى المتشرعة هو اختصاصه بالعلاقة مع الله سبحانه وتعالى، وهو الخشوع الحق، وغيره باطل.

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

وهو قد يكون في العبادة بالمعنى الأخص كالصلاة، قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1] وقد يكون في العبادة بالمعنى الأعم، أعني كل عمل صالح، قال عز وجل: ﴿وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾[2].

وقد يكون الخشوع في كل أحوال المؤمن أو في غالب أوقاته، قال عز وجل عن الزمرة الصالحة من عباده: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[3].

وقد يكون الخشوع عند النظر إلى العقوبة، لما فيه من التذلُّل أمام المعاقب، وأهم ذلك يكون للكفار عند نار جهنم، قال الله سبحانه: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾[4]، وقال في الدعاء: (اللهم إني أسألك خشوع الإيمان قبل خشوع الذل في النار).

والخشوع ليس حالة جسدية، وإن كانت قد تدل حالة الجسد عليه، إلا أن حالة الجسد قد تخلو من الإخلاص، والعياذ بالله، وأما الحالة القلبية، أو الخشوع حين يكون قلبياً، فلا يكون

---

(١) المؤمنون: ٢.

(٢) طه: ١٠٨.

(٣) الأنبياء: ٩٠.

(٤) المعارج: ٤٤.

إلا مخلصاً لتعذر اطلاع الآخرين عليه، فلا يمكن أن يحمل الرياء إطلاقاً، فإن خشعت معه الجوارح أو الجسد، كان خشوعها مخلصاً أيضاً، وإلا أمكن الاكتفاء بالخشوع القلبي.

ومن هنا قلنا: إن الخشوع قابل للاستمرار أو التكرار كثيراً في كل عمل صالح، لأن خشوع الجسد مؤقت بطبيعة تكوينه، ومن الصعب جداً أن يستمر، ما دام الفرد مسؤولاً عن حياته الدنيا، وأما خشوع القلب فهو قابل للتكرار والاستمرار، مع حسن التوفيق الإلهي.

خذ إليك مثلاً: عبد ذليل في قصر جليل، فهو يشعر بالخشوع دائماً كلما تجول في أنحاء القصر وتذكر صاحبه، وهذا الالتفات كثيراً ما يحصل عادة لوجوده بين يدي صاحب القصر، وكل ما في القصر يدل على أهميته وعظمته)[1].

• حقيقة تسبيح الكائنات وبيان معنى الكلام

بعد أن ثبت عندنا من خلال معطيات البحث السابق أن الخلق كله عابد ويسبح لله عز وجل، سوف نحاول الإجابة عن السؤال التالي الذي طرحه بعض الإخوة مكرراً، وهو: كيف يتحقق التسبيح من الكائنات والمخلوقات وخصوصاً

(١) فقه الأخلاق: ج١، ص٦٩-٧٠.

المخلوقات التي تسمى بالجمادات؟ كالجبال والحجر وكذلك الحيوانات والطيور؟

يعتبر هذا الموضوع من الأبحاث الجوهرية في حقيقة العبادة والارتباط بالله سبحانه وتعالى، وكذلك هو بحث مهم على مستوى حقيقة اللغة والكلام في حياة الإنسان والمخلوقات جميعاً.

تعرض العلامة الطباطبائي قدس سره لهذا الموضوع في تفسير قوله تعالى: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾[١]. وبين لنا طبيعة التسبيح الذي تقوم به المخلوقات والجمادات، وسوف نتعرض لما قاله هنا مع شيء من البيان والتوضيح والتعليق. حيث قال: التسبيح تنزيه قولي كلامي.. أي كقولنا: سبحان الله.. بمعنى أنزهه تعالى عن كل نقص وأثبت له الكمال.

وحقيقة الكلام هي الكشف عمّا في الضمير بنوع من الإشارة إليه أو الدلالة عليه، ويعود ذلك في حقيقته إلى فلسفة وجود اللغة في حياة الإنسان، لأن الإنسان لديه معاني باطنية

---

(١) الإسراء: ٤٤.

يريد أن يوصلها للآخرين وأحد طرق إيصال هذه المعاني هو الكلام، فحقيقة الكلام ليست هي الألفاظ بحد ذاتها، بل حقيقة الكلام هي كشف ما كان باطناً، فكل معنى خرج من الباطن المستور إلى الظاهر المكشوف يسمى كلاماً، وإنما الألفاظ هي أحد طرق إخراج المعاني الباطنة إلى الظاهر، ومن هنا سميت الألفاظ كلاماً. ولو تقدمنا خطوة أخرى في هذا الموضوع فنستطيع القول أن كل مخلوقات عالم الإمكان كانت قبل خلقها وظهورها باطنة مستورة عند الله سبحانه وتعالى ثم ظهرت حين خلقها، وبناء على ذلك يسمى الخلق كلمات الله!!

ثم يقول السيد الطباطبائي: غير أن الإنسان لما لم يجد إلى إرادة كل ما يريد الإشارة إليه من طريق التكوين طرقاً التجأ إلى استعمال الألفاظ وهي الأصوات الموضوعة للمعاني ودلَّ بها على ما في ضميره.

كما تقول لشخص مثلاً: أنا أحبك.. فإن معنى الحب كان كامناً في النفس والقلب وأفصحت عنه بواسطة الكلام.

ثم يقول: وجرت على ذلك سنّة التفهيم والتفهُّم وربما استعان الإنسان على بعض مقاصده بالإشارة بيده أو رأسه أو غيرهما، كما هو المتعارف في كثير من الإشارات المتداولة بيننا،

مثل وضع السبابة على الفم بمعنى: أسكت، أو هز الرأس طولياً بمعنى: نعم، وهز الرأس عرضياً بمعنى: كلا.. وغيرها من الإشارات.

وربما استعان الإنسان على ذلك بكتابة أو نصب علامة، كالعلامات الضوئية المرورية الموجودة الآن، فاللون الأحمر يعني الأمر بالتوقف، واللون الأخضر يعني السماح بالمسير، فهذه الإشارات أو العلامات تتكلم حقيقة ولكن بواسطة الضوء أو الحركة الخاصة.

ثم يقول: وبالجملة فالذي يكشف به عن معنى مقصود قول وكلام، وقيام الشيء بهذا الكشف قول منه وتكليم وإن لم يكن بصوت مقروع ولفظ موضوع.

ولعل بعض الإشارات تؤدي دور الكلام أفضل من القول اللفظي.

ومن الدليل عليه ما ينسبه القرآن إلى الله تعالى من الكلام والقول والأمر والوحي ونحو ذلك مما فيه معنى الكشف عن المقصد وليس من قبيل القول والكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات وقد سماه الله سبحانه، قولاً وكلاماً.

إذ من الواضح أن القرآن ينسب إلى الله عز وجل أنه

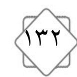
متكلم، فهل كان الله يتكلم بلغة الألفاظ مع النبيﷺ؟ بالطبع: كلا. بل هذه حقائق الغيب كشفت لهﷺ وقد سماها القرآن كلام الله مع أنها ليست من اللفظ الموضوع.

وبعد بيان حقيقة الكلام يعرج العلامة الطباطبائي على بيان كيفية تكلم المخلوقات والجمادات بالتسبيح والعبادة.

فيقول: وعند هذه الموجودات المشهودة من السماء والأرض ومن فيهما، ما يكشف كشفاً صريحاً عن وحدانية ربها في ربوبيته وينزهه تعالى عن كل نقص وشين، فهي تسبح الله سبحانه.

وهنا نسأل: ما هو هذا الشيء الموجود عند المخلوقات والذي يجعلها مسبحة؟

الجواب: وذلك لأنها ليست في أنفسها إلا محض الحاجة وصرف الفاقة إليه تعالى في ذاتها وصفاتها وأحوالها، لأنها تدرك أنها فقيرة محتاجة ناقصة، فالبذرة والنبتة التي تريد أن تصبح وردة أو ثمرة كاملة تدرك نقصها وحاجتها إلى خالقها وموجدها فترى أن الله هو الذي يمدها بالوجود والكمال وحينئذٍ تدرك فقرها وتدرك غناه سبحانه وتعالى فتسبحه وتخشع له لا محالة، والحاجة أقوى كاشف عمّا إليه الحاجة.



بمعنى أن أقوى كاشف ودليل على الله الغني هو الحاجة والفقر، فإياك أيها الإنسان أن تنسى الفقر!! لأن نسيان الفقر يوهمك أنك غير محتاج وبالتالي لا تعبد ولا تخشع ولا تسبح!

فكل هذه المخلوقات يكشف حاجته في وجوده ونقصه في ذاته عن موجده في وجوده التام الكامل في ذاته، وبارتباطه بسائر الموجودات التي يستعين بها على تكميل وجوده ورفع نقائصه في ذاته، أن موجده هو ربه المتصرف في كل شيء المدبر لأمره.. ثم النظام العام الجاري للأشياء الجامع لشتاتها الرابط بينها يكشف عن وحدة موجدها وأنه الذي إليه بوحدته ترجع الأشياء وبه وبوحدته ترتفع الحوائج والنقائص فلا يخلو من دونه من الحاجة، وهو الرب لا رب غيره والغني الذي لا فقر عنده، والكمال الذي لا نقص فيه، فكل واحد من هذه الموجودات يكشف بحاجته ونقصه عن تنزُّه ربه عن الحاجة وبراءة ربه من النقص حتى أن الجاهل - وهذا من أروع الأمثلة في المقام- المثبت لربه شركاء من دونه أو الناسب إلى ربه شيئاً من النقص تعالى وتقدس، يثبت بذلك تنزه الله عن الشريك، بمعنى: أن المشرك يريد أن يقول: أنا مشرك بالله، فكيف يقول ذلك؟ إنه يستعمل هذه الأدوات من الفم واللسان وغيرهما وهي ناقصة

تحتاج إلى القوة من الله لكي يتحقق الكلام، فحتى لو قال: أنا مشرك، فإنه يثبت بذلك وحدانية الله وتنزهه سبحانه وتعالى، فإن المعنى الذي تصور في ضمير الإنسان واللفظ الذي يلفظه لسانه وجميع ما استخدمه في تأدية هذا المقصود أمور موجودة تكشف بحاجتها الوجودية عن رب واحد لا شريك له ولا نقص فيه. فمثل هذا الإنسان الجاحد في كون جحوده اعترافاً مثل ما لو ادعى إنسان أن لا إنسان متكلم في الدنيا، وشهد على ذلك قوله!! بمعنى أنه لو قال: لا يوجد إنسان متكلم في هذه الدنيا، فإنه بنفس هذا الكلام يثبت أن هناك إنسان متكلم، فإن شهادته أقوى حجة على خلاف ما ادعاه وشهد عليه وكلما تكررت الشهادة على هذا النمط وكثر الشهود تأكدت الحجة عن طريق الشهادة على خلاف الشهادة!! أفي الله شك فاطر السموات والأرض؟!

وكلامه سبحانه وتعالى في القرآن يؤكد أن العلم حقيقة سارية في جميع الموجودات مع سريان الخلقة، فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود وليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو أن يتحد من حيث جنسه، أو يفقه الإنسان بما عند الموجودات الأخرى من العلم، قال تعالى حكاية

عن أعضاء الإنسان: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[(١)] هذا الإنطاق والكلام في يوم الحساب عند شهادة الجلود والأيدي والأرجل، فيعاتبها الإنسان على شهادتها ضده، فيكون جوابها: أنها أنطقها الله! أي أننا كنا ندرك ونسبح ونعبد الله في دار الدنيا ولكنك أيها الإنسان لا تعلم بذلك.. الله سخرنا لك فذهبت بنا إلى المعصية.. فاليوم نشهد عليك.. وإذا كان الأمر كذلك فما من موجود مخلوق إلا وهو يشعر بنفسه ببعض الشعور، وهو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجة الناقصة التي يحيط بها غنى ربها وكماله، لا رب غيره، فهو يسبح ربه وينزهه عن الشريك وعن كل نقص ينسب إليه تعالى[(٢)].

وهناك مجموعة من النصوص المعتبرة التي أكدت تسبيح المخلوقات نذكر بعضاً منها كشاهد على هذا البحث:

عن الإمام الباقر عليه السلام: (نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن أن توسم البهائم على وجوهها أو أن تضرب بوجهها، لأنها تسبح بحمد ربها).

وعن الصادق عليه السلام: (ما من طير يصاد في بر أو بحر ولا

---

(١) فصلت: ٢١.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٣، ص١٠٩ وما بعدها.

شيء يصاد من الوحش إلا بتضييعه التسبيح).

وعن النبي الأكرمﷺ أنه قال لعائشة: (اغسلي هذين الثوبين، فقالت: غسلتهما بالأمس! فقال لها النبي: أما علمت أن الثوب يسبح فإذا اتسخ انقطع تسبيحه).

وفي ضوء هذه الرواية نفهم معنى آخر من الحديث المشهور (النظافة من الإيمان) باعتبار أن النظافة تتعلق بالتسبيح والعبادة فالجسد والملابس كلها عابدة مسبحة تريد أن تكون نظيفة طاهرة لكي يستمر تسبيحها.

وفي المستدرك عن عليعليه السلام: كنا مع رسولﷺ الله بمكة فخرجنا في بعض نواحيها فما استقبله شجر ولا حجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله!

أي أن أمير المؤمنينعليه السلام يسمع سلام الشجر والحجر.. لأن هذه المخلوقات مسبحة لله سبحانه.. والنبي الأكرم خليفة الله في الأرض فتسلم عليه تكوينياً.. لأنه مستخلف على وجودها وكمالاتها وهو الشاهد عليها أمام الله سبحانه.

وفي مناقب ابن شهر آشوب عن علقمة بن مسعود: (كنا نجلس مع النبي ونسمع الطعام يسبح ورسول الله يأكل.

وأتاه مكرز العامري وسألهُ آية فدعا بتسع حصيات

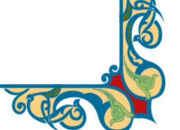


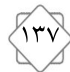
فسبحن في يده.. الحديث).

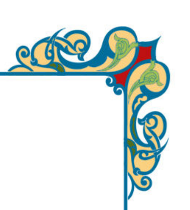
وأخرج العقيلي والشيخ والديلمي عن أنس: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (آجال البهائم كلها وخشاش الأرض والنمل والبراغيث والجراد والخيل والبغال والدواب كلها وغير ذلك آجالها في التسبيح، فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت شيء).

وكذلك حديث جذع النخلة المشهور: حيث كان النبي صلى الله عليه وآله يصلي عند جذع نخلة ويتكئ عليه عند الخطبة، فقالت بعض زوجاته إن هناك امرأة عندها ابن نجار، فليصنع لك منبراً تخطب عليه، فلم يمانع النبي، وصنعوا المنبر وصعد عليه رسول الله، فسمع الناس أنين النخلة، وسألوا عن ذلك، فقال رسول الله: إنها بكت على ما كانت تسمع من ذكر الله عندها! وهذا يعني أنها كانت تدرك ذكر الله.. وتسبح الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين







المبحث السادس

• التسبيح يقتضي أن جميع الكائنات عالمة مدركة

بعد أن ثبت عندنا من خلال معطيات البحوث السابقة من أن الكون كله مسبح لله وعابدٌ له وهذا ما أطلقنا عليه التسبيح الكوني، سوف نواجه السؤال التالي:

إن فرض تسبيح الكائنات والجمادات لله عز وجل يلزم منه أن يكون لهذه الموجودات نحو من العلم والإدراك، إذ من المعلوم أنه بدون تحقق العلم لا يمكن أن يتحقق التسبيح، لأن التسبيح إدراك لعظمة الله سبحانه وغناه المطلق، وفي نفس الوقت هو إدراك المخلوق لحاجته وفقره وتذلُّله له عز وجل، فلو فرضنا أن هذه الجمادات غير عالمة ولا مدركة سوف يكون التسبيح المنسوب لها في القرآن تسبيحاً مجازياً وليس حقيقياً، بعبارة أخرى أننا إذا أردنا أن ننسب أنها مسبحة حقيقة فلا بد أولاً أن نثبت لها نحواً من الإدراك والعلم.

في هذا المجال يقول العلامة الطباطبائي ان كلام الله تعالى في القرآن مُشعِر أن العلم حقيقة سارية في جميع الموجودات مع

سريان الخلقة، أي أن كل مخلوق في عالم الإمكان فإن له حظاً من العلم على مقدار حظه من الوجود، وليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنس العلم ونوعه، أو أن يفقه الإنسان ما عند المخلوقات الأخرى من العلوم والإدراكات، بمعنى أن نوع العلم ودرجته يختلف من موجود إلى آخر ولذلك (لا نفقه تسبيحهم) حسب الآية الكريمة، لأننا لا نعلم نوع علمهم.

قال تعالى حكاية عن أعضاء الإنسان: ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

إذن الآية تقرر أن الله تعالى (أنطق كل شيء) و من المعلوم أن (كل) من أدوات العموم وكذلك كلمة (شيء) فإنها من أعم الكلمات، فالجلود والأيدي وكل شيء يمكن أن ينطقه الله سبحانه وتعالى ويجعله ناطقاً متكلماً، بل يكون شاهداً ضد الإنسان يوم الحساب، وعندما يعاتبها الإنسان على ذلك، تقول

---

(١) فصلت: ٢١-٢٣.

له: أنطقنا الله! ولسنا وحدنا الناطقين بل أنطق كل شيء إلا أنـك أيها الإنسان لا تفقه نطقنا، ولا شك أن النطق والشهادة تستدعي أن يكون الناطق والشاهد مدركاً عالماً لما ينطق به أو يشهد عليه!

وإذا كان الأمر كذلك فما من موجـود أو مخلـوق إلا وهـو يشعر بنفسه بعـض الـشعور وهـو يريـد بوجـوده إظهـار نفـسه المحتاجة الناقصة التي يحيطها غنى ربه وكماله، لا رب غيره، فهو يسبح ربه وينزهه عـن الـشريك وعـن كـل نقـص ينـسب إليـه وبذلك يظهر أنه لا وجه لحمل التسبيح في الآيات على المجاز بل هو تسبيح حقيقي من الكائنات والمخلوقـات جميعـاً ولكـن كـل بحـسب درجتـه الوجوديـة ومرتبـة كمالـه الخاصـة بـه، فـالعلم والإدراك حقيقـة سـارية في جميـع الموجـودات، ولـيس العلـم فحسب بل إن البحث الفلـسفي يثبـت أيـضاً أن الحـب حقيقـة سارية في جميع الموجودات كذلك ونقـصد بـه الحـب الوجـودي المرتبط بنيل الكمالات الحقيقية وحصول السعادة الواقعية.

فالكائنات المسبحة العابـدة إذا أرادت أن تبقـى سـائرة في طريق الكمال فلا سبيل لها إلا عبادة الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].. فالخير كل الخير هو في عبـادة الله

(١) العنكبوت: ١٦.

سبحانه.. وتقوى الله سبحانه.. ومن ترك صراط العبادة والعبودية لله سبحانه فإنه سوف ينحرف عن إدراك كماله الحقيقي لا محالة، لأن عبوديتنا لله عز وجل تستند إلى مالكيته الحقيقية لنا كما أوضحنا في الأبحاث السابقة.. أي هو الغني المطلق.. والإنسان هو المحتاج والفقير المطلق، ولا طريق للفقير المطلق للحصول على كماله إلا بالارتباط بالغني المطلق.. فحاجة الفقير الحقيقية الوجودية لا تقضى إلا عند صاحب الغنى الحقيقي ومصدر الكمال اللامتناهي.

• سورة الفاتحة منهاج عبادة متكامل

في ضوء ما تقدم في بيان حقيقة ارتباط الكائنات جميعاً بالله سبحانه وتعالى يمكن التأمّل في سورة الفاتحة المباركة التي تسمى بـ (أم الكتاب) وأن الصلاة الواجبة لا تتم إلا بفاتحة الكتاب.. لنجد أن آيات الفاتحة عبارة عن منهج أو خارطة متكاملة ترسم صراط العبادة والتكامل نحو الله الحق عز اسمه.. لأن هذه السورة المباركة وضعت فيها جميع أسرار الارتباط بالله سبحانه وتعالى.. من البسملة حتى آخر السورة.

فتبدأ ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾أي أن الخطوة الأولى تبدأها باسم الله (الرحمن) (الرحيم).

ثم تشرع وتقول: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي ما دام الله هو الرب والخالق والمدبر والمفيض للوجود فلا يليق الحمد المطلق إلا به سبحانه وتعالى، فله الحمد كله.

ثم تقول: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وهما الاسمان الإلهيان العظيمان، فإن رحمته تعالى وسعت كل شيء!

ثم تقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إذن هو ربنا الذي خلقنا والذي بدأت مسيرة الوجود منه.. وهو الذي تؤول إليه عاقبتنا ونهاية مسيرتنا الوجودية لأنه مالك يوم الدين!

ومن هنا تكون النتيجة الحتمية لهذه الآيات هي أننا لا بد أن نعترف ونقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي ما دام المبدأ والمنتهى بيدك.. فلا عبادة إلا لك سبحانك.. ولا استعانة إلا بك يا الله! فإياك نعبد وإياك نستعين.. وبعد ذلك يترتب بصورة رائعة طلبنا منه سبحانه، فنقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾! ما هي مواصفات هذا الصراط؟

الجواب: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ .. نعمة الهداية.. ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ .. وهو صراط العبودية الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين.. ولذلك عندما نراجع الكلام الذي ينقله القرآن عن الأنبياء نجدهم يقولوا لأقوامهم: (أعبدوا الله..).



• العناوين والأسماء ليست هي ميزان السعادة الحقيقية والكرامة عند الله

بناءً على ما تقدم من أن التوحيد في العبادة هو الصراط الذي دعا إليه جميع الأنبياء والمرسلين.. وأن (لا إله إلا الله) هي الحصن الذي يمثل الدخول في الولاية الإلهية، سوف نشير هنا إلى بحث آخر مرتبط بالإيمان بالله سبحانه وتعالى وآثار العمل الصالح الذي يكون هو المعيار الحقيقي في نيل السعادة الحقيقية والفوز بالكرامة عند الله سبحانه وتعالى، وليس المعيار هو التسمّي بالأسماء والعناوين الدينية أو المذهبية أو غيرها، وذلك من خلال التوقف عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فقد ذكرت هذه الآية أربع فئات، هم:

١. الذين آمنوا.

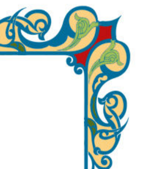
٢. الذين هادوا.

٣. النصارى.

٤. الصابئون.

---

(١) البقرة: ٦٢.



ووصفتهم بأوصاف ثلاثة هي:

١. آمنوا بالله.

٢. آمنوا باليوم الآخر.

٣. عملوا صالحاً.

ثم رتبت على تحقق هذه الأوصاف الثلاثة نتيجة أخرى هي: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ومن حقنا أن نسأل هنا: على أي أساس تحققت هذه النتيجة وهي حصول الأجر عند الله مع أن بعض الفئات المذكورة لا يؤمن بأنبياء البعض الآخر كما هو واضح؟

في جواب هذا السؤال يذكر العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان وتحت ذيل هذه الآية الكريمة: (تكرار الإيمان ثانياً وهو الاتصاف بحقيقته كما يعطيه السياق يفيد أن المراد بالذين آمنوا في صدر الآية هم المتصفون بالإيمان ظاهراً، المتسمّون بهذا الاسم، فيكون محصّل المعنى أن الأسماء والتسمّي بها مثل المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين لا يوجب عند الله تعالى أجراً ولا أمناً من العذاب! كقولهم: لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وإنما ملاك الأمر وسبب الكرامة والسعادة الحقيقية هو الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وهذا ما

تكررت فيه آيات القرآن أن السعادة والكرامة تدور مدار العبودية، فلا اسم من هذه الأسماء ينفع لمتسميه شيئاً! ولا وصف من أوصاف الكمال يبقى لصاحبه وينجيه إلا مع لزوم العبودية، الأنبياء ومن دونهم فيه سواء، فقد قال تعالى في أنبيائه بعدما وصفهم بكل وصف جميل: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[(١)]، وقال تعالى في أصحاب نبيه ومن آمن معه مع ما ذكر من عِظَم شأنهم وعلوّ قدرهم: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[(٢)].

فأتى بكلمة (منهم) وقال في غيرهم عمن أوتي آيات الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾[(٣)]. إلى غير ذلك من الآيات الناصّة على أن الكرامة بالحقيقة دون الظاهر![(٤)].

فالالتزام بصراط العبودية لله سبحانه هي المُنجي والموصل للسعادة والكرامة الحقيقية.. وبمجرد أن يترك الإنسان هذا

---

(١) الأنعام: ٨٨.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) الأعراف: ١٧٦.

(٤) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص١٩٢-١٩٣.

الصراط ويشرك بالله تعالى سوف يسقط في وادي الهلاك حتى لو كان في أعلى درجات الكمال، لا يختلف في ذلك الأنبياء وغيرهم من البشر.

ومن الشواهد الرائعة التي وردت في الكلام السابق هو التمثيل بأصحاب النبي الأكرمﷺ، حيث أن الموعودين منهم بالمغفرة والأجر العظيم ليس جميع الصحابة، بل هم فئة خاصة محددة كما يبينه قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1].

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الموعودون بالمغفرة والأجر العظيم ولا ينفعهم عنوان (صحبة النبي) في ذلك.

وكذلك المثال الآخر الوارد في الموضوع، وهو مثال الولي الذي آتاه الله آياته وهو بلعم بن باعوراء حيث كان ولياً من أولياء الله وآتاه الله الآيات كما ينص على ذلك القرآن، فهو ذو

(١) الفتح: ٢٩.

مقام عظيم ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾[١] فماذا كانت عاقبته؟

قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[٢]، والضمائر الموجودة في هذه الآية الكريمة مهمة جداً، فالرفع من عند الله ﴿لَرَفَعْنَاهُ﴾، ولكن الإرادة تأتي من الإنسان، أما الخلود إلى الأرض فهو من العبد ﴿أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ والأرض هنا إشارة إلى العالم الأدنى، فهي صورة رمزية إلى الهبوط والتسافل والانغماس في عالم المادة، ومن هنا فهو لم يرتفع إلى العالم العلوي.. عالم النور والكمال، وأن سبب إخلاده إلى الأرض هو اتباع الهوى. فلو تأملنا في هذه الآية الكريمة لوجدناها ترسم صورة عجيبة عن حال هذا الإنسان فبدايتها تعطيه مقاماً كبيراً ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ولكن نهايتها ترسم صورة سقوطه من هذا المقام إلى مقام متسافل جداً يصفه القرآن: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾!!! وأن سبب هذا السقوط المهلك هو اتباع الهوى وترك صراط العبودية.

وهذا المعنى هو الذي أكدته الروايات المعتبرة عن أهل

---

(١) الأعراف: ١٧٥.

(٢) الأعراف: ١٧٦.

البيتعليهم السلام، حيث دلت على أن النجاة أمام الله سبحانه وتعالى ليست بالتسميات أو العناوين وإنما بالعمل الصالح المستند إلى الإيمان الصحيح، فقد ورد عن جابر عن أبي جعفر الباقر ، قال: قال لي عليه السلام : يا جابر، أيكفي من انتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت؟ فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه، وما كانوا يعرفون يا جابر إلا بالتواضع والتخشع والأمانة وكثرة ذكر الله والصوم والصلاة والبر بالوالدين والتعهد للجيران من الفقراء وأهل المسكنة والغارمين والأيتام وصدق الحديث وتلاوة القرآن، وكفّ الألسن عن الناس إلا من خير، وكانوا أمناء عشائرهم في الأشياء، قال جابر: فقلت: يا ابن رسول الله ما نعرف اليوم أحداً بهذه الصفة!!

فقال عليه السلام: يا جابر لا تذهبن بك المذاهب، حسب الرجل أن يقول أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون بعد ذلك فعالاً، فلو قال: إني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من علي، ثم لا يتبع سيرته ولا يعمل بسنته ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله وأكرمهم عليه تعالى أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يتقرب إلى الله تعالى إلا بالطاعة، ما معنا براءة من النار

ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كـان لله عاصـياً فهـو لنـا عـدو، ومـا تنـال ولايتنـا إلا بالعمـل والورع[١].

● **الإسلام والتسليم وعلاقتهما بمقام العبودية**

قلنا في محاضرات سـابقة أن بحـث العبـادة والعبوديـة لله سبحانه وتعالى مرتبط ارتباطاً جوهرياً ببحث الربوبية.. وذكرنـا ذلك في مستهل هذه الأبحاث عند قوله تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُـمْ﴾[٢] وإتماماً لهذا البحث سوف نتكلم عن معنى الإسلام والتسليم وعلاقـتهما بالطاعـة والعبـادة، مـن خلال التوقف عند قوله تعالى في حق نبي الله إبـراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] وكذلك قوله تعـالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَـا مُـسْلِمَيْنِ لَـكَ وَمِـنْ ذُرِّيَّتِنَـا أُمَّـةً مُـسْلِمَةً لَـكَ وَأَرِنَـا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ﴾[٤] وفي كلتـا الآيتـين ورد لفظ (التسليم) وهو يعني الطاعة والعبودية بأعلى درجاتها.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٧٤.

(٢) البقرة: ٢١.

(٣) البقرة: ١٣١.

(٤) البقرة: ١٢٨.

يقول العلامة الطباطبائي قدس سره في هذا المعنى: (الإسلام والتسليم والاستسلام بمعنى واحد من السلم، وأحد الشيئين إذا كان بالنسبة إلى الآخر بحال لا يعصيه ولا يدفعه، فقد أسلم وسلّم واستسلم له، قال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ**﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿**وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً**﴾[(٢)].

ووجه الشيء ما يواجهك به، وهو بالنسبة إليه تعالى تمام وجود الشيء، فإسلام الإنسان له تعالى هو وصف الانقياد والقبول منه لما يرد عليه من الله سبحانه من حكم تكويني من قدر وقضاء، أو حكم تشريعي من أمر أو نهي أو غير ذلك، ومن هنا كان للإسلام مراتب بحسب ترتب الواردات بمراتبها.

● مراتب الإسلام

المرتبة الأولى: من مراتب الإسلام القبول لظواهر الأوامر والنواهي بتلقي الشهادتين لساناً، سواء وافقه القلب أم خالفه، قال تعالى: ﴿**قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[(٣)]، ويتعقب الإسلام بهذا المعنى

---

(١) البقرة: ١١٢.

(٢) الأنعام: ٧٩.

(٣) الحجرات: ١٤.

أول مراتب الإيمان وهو الإذعان القلبي بمضمون الشهادتين إجمالاً ويلزمه العمل في غالب الفروع.

المرتبة الثانية: ما يلي المرتبة الأولى، وهو التسليم والانقياد القلبي لجلّ الاعتقادات الحقة التفصيلية وما يتبعها من الأعمال الصالحة وإن أمكن التخطّي في بعض الموارد، قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً**﴾[2]، فمن الإسلام ما يتأخر عن الإيمان محققاً فهو غير المرتبة الأولى من الإسلام، ويتعقب هذا الإسلام المرتبة الثانية من الإيمان وهو الاعتقاد التفصيلي بالحقائق الدينية، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[3]، وقال أيضاً: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**﴾[4]، وفيه إرشاد إلى المؤمنين بالإيمان، فالإيمان غير الإيمان الأول.

---

(١) الزخرف: ٦٩.

(٢) البقرة: ٢٠٨.

(٣) الحجرات: ١٥.

(٤) الصف: ١٠-١١.

المرتبة الثالثة: ما يلي الإيمان بالمرتبة الثانية، فإن النفس إذا آنست بالإيمان المذكور وتخلقت بأخلاقه تمكنت منها وانقادت لها سائر القوى البهيمية والسبعية، وبالجملة القوى المائلة إلى هوسات الدنيا وزخارفها الفانية الدائرة، وصار الإنسان يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، ولم يجد في باطنه وسره ما لا ينقاد إلى أمره ونهيه أو يسخط من قضائه وقدره، قال الله سبحانه: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[1]، ويتعقب هذه المرتبة من الإسلام المرتبة الثالثة من الإيمان، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2] إلى أن قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[3]، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4]، وربما عُدّت المرتبتان الثانية والثالثة مرتبة واحدة.

والأخلاق الفاضلة من الرضا والتسليم، والحسبة والصبر في الله، وتمام الزهد والورع، والحب والبغض في الله من لوازم هذه المرتبة.

---

(١) النساء: ٦٥.

(٢) المؤمنون: ١.

(٣) المؤمنون: ٣.

(٤) البقرة: ١٣١.

المرتبة الرابعة: ما يلي المرتبة الثالثة من الإيمان، فإن حال الإنسان وهو في المرتبة السابقة مع ربه حال العبد المملوك مع مولاه، إذ كان قائماً بوظيفة عبوديته حق القيام، وهو التسليم الصرف لما يريده المولى أو يحبه ويرتضيه، والأمر في ملك رب العالمين لخلقه أعظم من ذلك وأعظم، وأنه حقيقة الملك الذي لا استقلال دونه لشيء من الأشياء لا ذاتاً ولا صفة، ولا فعلاً، على ما يليق بكبريائه، جلت كبرياؤه.

فالإنسان وهو في المرتبة السابقة من التسليم ربما أخذته العناية الربانية فأشهدت له أن الملك لله وحده لا يملك شيء سواه لنفسه شيئاً إلا به لا رب سواه، وهذا معنى وهبي، وإفاضة إلهية، لا تأثير لإرادة الإنسان فيه، ولعل قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا**﴾[1] إشارة إلى هذه المرتبة من الإسلام، فإن قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[2] ظاهره أنه أمر تشريعي لا تكويني، فإبراهيم كان مسلماً باختياره، إجابة لدعوة ربه وامتثالاً لأمره، وقد كان هذا من الأوامر المتوجهة إليه عليه السلام في مبادئ

---

(١) البقرة: ١٢٨.

(٢) البقرة: ١٣١.

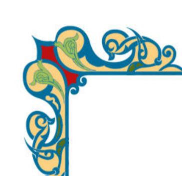
حاله، فسؤاله في أواخر عمره مع ابنه إسماعيل الإسلام وإراءة المناسك هو سؤال لأمر ليس زمامه بيده أو سؤال لثبات على أمر ليس بيده، فالإسلام المسؤول في الآية هو هذه المرتبة من الإسلام، ويتعقب الإسلام بهذا المعنى المرتبة الرابعة من الإيمان، وهو استيعاب هذا الحال لجميع الأحوال والأفعال، قال تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[(١)]، فإن هؤلاء المؤمنين المذكورين في الآية يجب أن يكونوا على يقين من أن لا استقلال لشيء دون الله، ولا تأثير لسبب إلا بإذن الله، حتى لا يحزنوا من مكروه واقع، ولا يخافوا محذوراً محتملاً، وإلا فلا معنى لكونهم بحيث لا يخوفهم شيء، ولا يحزنهم أمر، فهذا النوع من الإيمان بعد الإسلام المذكور[(٢)].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) يونس: ٦٢-٦٣.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٢٩٦-٢٩٨.



المبحث السابع

• الفرق بين طاعة الله عز وجل وطاعة السلطان

ذكرنا أن العبادة والطاعة لله سبحانه وتعالى هي في حقيقتها سير نحو الكمال المطلق والوصول إلى السعادة الحقيقية، ومن هنا فإن فائدة هذه الطاعة تعود بشكل مطلق إلى المطيع والعابد، ولا يوجد أي فائدة تعود إلى المطاع والمعبود لأنه مصدر الكمال والغنى اللامتناهي، وهذا بخلاف الطاعات الأخرى التي توجد في حياة الإنسان كطاعة السلطان الدنيوي مثلاً، إذ أن طاعة السلطان أو الملك تكون في فائدة المطاع لأنه محتاج إلى هذه الطاعة لبسط نفوذه وسلطانه واستمرار ملكه وهيمنته على مقدرات المجتمع، نعم قد توجد بعض الفوائد الدنيوية التي ينالها الإنسان المطيع للسلطان، لكن الفائدة العظمى التي تترتب على هذه الطاعة تعود إلى نفع المطاع وهو السلطان أو الملك. وهذا بخلاف طاعة الله سبحانه وتعالى التي تعود جميع نتائجها وثمارها إلى الإنسان المطيع العابد.

يقول سيدنا الشهيد السعيد السيد محمد الصدر قدس سره: (إن

الله تبارك وتعالى هو الكمال المطلق من جميع الجهات. أعني: الكامل المطلق في جميع أسمائه وصفاته وأقواله وأفعاله جلّ جلاله.

ومن هنا كان التكامل البشري وغير البشري كأنه بشكل أو بآخر اتجاه نحو كماله تبارك وتعالى، ومن هنا كان هو الغاية القصوى والهدف الأعلى.

وقد ركز الإنسان الاتجاه إلى الكمال في كل شيء: في العلم والقدرة والحياة والإرادة وغيرها، وكلها لا توجد إلا عنده سبحانه، ومن هنا أصبح إليه المنتهى وإليه الرجعى، كما تصرح به الآيات.

وعليه نفهم من ذلك معنى : (قربة إلى الله) و (في سبيل الله) ونحو مما هو روح العبادات، يعني: يكون العمل في طريق التكامل باتجاه الكمال المطلق وعلى طريق الوصول إليه، وإن لم يصل إليه فعلاً.

ومعنى ذلك أن يكون العمل الذي نقوم به في طريق الكمال ولنيل رضاء الله سبحانه، فهو من مصلحة العامل نفسه ولا يعود على الله تعالى بأي نفع، لأنه غني عن العالمين، ولكنه سبحانه أراده من العبد، لأنه رحيم به، وشفيق عليه، وقد عرّفه طريق الحق.

ثم إن الله تبارك وتعالى علم في سابق علمه أن الإنسان

- وهو في طريق الكمال- قد يمارس الذنوب ويبتلى بالعيوب، وهذا مما ينبغي التخلص منه والخروج من ربقته، فجعل له طرقاً كثيرة أكثر من أن تحصى، وكلها من رحمته ولطفه، منها:

١. شفاعة المعصومين عليهم السلام.

٢. التوبة.

٣. الاعتراف.

٤. الصلاة نفسها.

٥. كل عبادة مقبولة.

٦. أماكن معينة للاستغفار.

٧. أزمان معينة للاستغفار.

٨. أساليب معينة للاستغفار.

٩. إن الله تعالى حمّل النبي صلى الله عليه وآله ذنوب أمته وغفرها له.

١٠. قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ والنبي صلى الله عليه وآله لن يرضى بالشفاعة لقليل من المذنبين، بل سيرزقه الشفاعة الكبرى، إلى غير ذلك [1]).

● ارتباط العبادة بالألوهية ظاهراً وباطناً

من أسرار العبادة التي يذكرها المحققون أن العبادة سر

(١) تعليقة على الفتاوى الواضحة، ج٢، ص٥٠١-٥٠٣.

ظهر في الكون عند ظهور الألوهية المطلقة، بمعنى أن الألوهية عندما تجلّت في عالم الخلق والتكوين تحققت العبادة، وصار هناك إله معبود ومخلوق عابد، ونعني بالعبادة هنا الخضوع التكويني، إذ بمجرد أن ظهرت الألوهية وجد العابدون.. فكل المخلوقات عابدة لأنها فقيرة مخلوقة لإلهٍ ورب غني مطلق.. وبهذا تكون العبادة جزء حقيقة العبد وهي الوعاء الوجودي والتكويني لفيضان النور الإلهي.. فكل مخلوق يكون وعاءً لهذا النور .. ومن خلال هذا الشعور سوف يدرك حاجته وفقره لربه وخالقه.. ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وفي هذا المجال يقول الحكيم الإسلامي السيد كاظم الرشتي قدس سره: (لأنه عز وجل خلقهم لإيصالهم إلى الغاية القصوى، من نور الفيض والكرم، والجود والعطية، فلهم السؤال والطلب، والاستعداد والقابلية، ولله العطية والفيض، فما يسألون يعطيهم، وبذلك ينالون نصيبهم من الكتاب: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[2]، فخلقهم سبحانه ليخضعوا له بالسؤال، ويقفوا على باب الكرم، ويطلبوا

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) النمل: ٦٢.

الاستغناء لغاية فقرهم وشدة فاقتهم، وذلك حقيقة العبادة وسرها، وهي في كل عالم بحسبها، وهي الأرض الطيبة، والبلد الطيب، وجداول لجريان الماء الذي به حياة كل شيء.

فالعبادة لصفة الألوهية، والله هو المعبود المطلق لا سواه، والعبادة جزء حقيقة العبد، وأصل نفسه وحقيقة سره، والعبد على الحقيقة هو الحائز لجميع مقامات العبادة ومراتبها)[1].

- **الخضوع والخشوع عند الأنبياءعليهم السلام**

من آثار العبادة الحقيقية هو ما يحصل عند الأنبياءعليهم السلام من الخشوع والخضوع التام أمام الله سبحانه وتعالى، ويمكن أن نتأمل في هذا النص القرآني المبارك للوقوف على هذه الحقيقة التي تمثل أحد أعلى مستويات العبادة.

قال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَانِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[2].

---

(١) أسرار العبادات: السيد كاظم الرشتي، ص٢٠-٢١.

(٢) مريم: ٥٨-٥٩.

فـ (السُّجَّد) تعطي كمال الخضوع، و (بُكِيّاً) تعطي كمال الخشوع، لأن الإنسان العابد إذا وصل إلى هذه الدرجة العالية من الخشوع تحصل عنده حالة البكاء. فالأنبياءعليهم السلام إذا تتلى عليهم آيات الرحمن يخرون سُجَّداً وبُكِيّاً، و (الخرّ) من المعاني التي تكررت في القرآن الكريم كما في قوله: ﴿**وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً**﴾[1] ﴿**ويَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً**﴾[2] و ﴿**وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً**﴾[3].

ومعنى الخرّ هو السقوط إلى الأرض، لكنه سقوط سريع جداً، تارة نقول: انهدم الحائط، وأخرى نقول: انهار الحائط، وثالثة نقول: خرّ الحائط. والانهيار أكثر سرعة من الانهدام، والخرّ أكثر سرعة في السقوط من الانهيار.

فيكون المعنى أن الأنبياءعليهم السلام، عندما تتلى عليهم آيات الرحمن يسقطون إلى الأرض بهذه الدرجة العالية من السقوط وهي (خرُّوا) وذلك بسبب وصولهم إلى هذه الدرجة العظيمة من العبودية لله سبحانه وتعالى فيدركون فقرهم وحاجتهم أمام الغني المطلق فيخرّون سُجّداً وبُكيّاً. ثم تقول الآية التي بعدها:

---

(١) الأعراف: ١٤٣.

(٢) الإسراء: ١٠٧.

(٣) مريم: ٩٠.

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ فتضييع الصلاة التي هي أعظم العبادات يعني أنهم أضاعوا العبادة والخضوع والخشوع.. فأضاعوا طريق الكمال والسعادة والارتباط بالغني المطلق.. وليس لهم بعد ذلك إلا اتباع الشهوات.. والوصول إلى النتيجة الحتمية وهي: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾!!

وإضاعة الصلاة ليس معناها أنهم تركوا الصلاة مباشرة، لأن الذي يترك الصلاة رأساً لا يقال له أضاع الصلاة، وإنما يقال: أضاع الصلاة، لمن يستهين بها أو يفسدها بالرياء ويضيع عنده التوجُّه نحو الله سبحانه وتعالى، وهذا الخلف أضاعوا جوهر العبودية وحقيقتها فلا نتيجة لهم إلا الوقوع في الغيّ والضلال والهلاك الحقيقي.

وهناك آيات قرآنية أخرى تؤكد لنا حقيقة العبادة التي يصورها لنا القرآن الكريم، ومن خلال التأمل في هذه الآيات سوف يتضح لنا مكانة العبادة ومنزلتها في منظومة معارف القرآن.

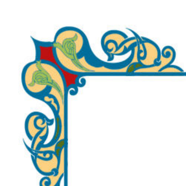
ومنها قوله تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيّاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلاَّ سَلاَماً وَلَهُمْ

رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً * تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً * وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً * رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾[1].

ومحل الشاهد في هذا النص القرآني يبدأ من قوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ...﴾ فكل شيء في حياتنا هو لله سبحانه وتعالى ويؤكد ذلك بقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وما دامت السموات والأرض وما بينهما بيده سبحانه فتكون النتيجة الحتمية لمن أراد التكامل هي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، فإن (اصطبر) لا تعني هنا تحمُّل مشقة العبادة وثقلها، بل المراد أنك إذا لم تصطبر على عبادة رب السموات والأرض وما بينهما فليس عندك إله آخر تذهب لعبادته، أو بمعنى آخر ليس عندك خيار آخر غير عبادته، فاصطبر عليها، فهل لديك رب آخر بهذه الصفات لكي تذهب لعبادته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾؟!

والحمد لله رب العالمين

(١) مريم: ٦١-٦٥.



المبحث الثامن

• عزُّ الإنسان في عبادة الله

من الآيات القرآنية الأخرى المرتبطة ببحث العبادة هي قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً * كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً﴾[1].

تتحدث هذه الآية عن صنف من الناس تركوا عبادة الله عز وجل وذهبوا إلى عبادة آلهة أخرى، ولا نقصد بالآلهة هنا الأصنام فقط بل كل شيء يُطاع ويُعبد من دون الله كالهوى والنفس الأمارة بالسوء والشهوات، فتارة يتخذ الإنسان المال ليكون له عزاً، أي يعتقد أن عزته بجمع الأموال وامتلاكها.. أو يعتقد أن عزته في الشهرة والنفوذ.. وغيرها من الأمور الدنيوية التي تندرج في قائمة الآلهة المصطنعة التي تستند إلى اتباع الهوى والشهوات، والتي لا بد على الإنسان العابد أن يكون على حذر كبير منها.

ومن هنا – كمثال– كان السيد الشهيد السعيد محمد

---

(١) مريم: ٨١-٨٢.

الصدرقَدَسَرَّهُ يمنع الناس من تقبيل يده الشريفة، لأنه كان يقول: أنت تقبّل يدي قربة إلى الله تعالى.. ولكني قد أهلك بسبب ذلك، لأن هذا الأمر وهو تقبيل اليد مزلق خطير للنفس الأمارة.. وفعلاً أن الإنسان إذا رأى آلاف الناس واقفين لكي يقبلوا يده وينحنون أمامه سيكون في اختبار عظيم لكي يسيطر على نفسه وأن لا يفشل ويقع في متاهات الآلهة المصطنعة. فالسيد الشهيدقَدَسَرَّهُ ملتفت إلى ذلك أكيداً.

إذن يتوهم هؤلاء الناس أن هذه الآلهة المزيفة تكون لهم عزاً، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك، فتأتي الآية التي بعدها لتقرر: ﴿**كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً**﴾ أي بعد أن ينكشف لهم زيف هذه الآلهة سيكفرون بعبادتها.. بل إن هذه الآلهة ليست لا تنفع الإنسان فقط بل ستكون له ضداً!! لأن هذه الأمور التي تتخذها آلهة سواء كانت مادية أو معنوية من دون الله سوف تشهد ضد الإنسان يوم الحساب، وحتى الشيطان سيشهد ضد الذين يتبعونه ويتخذونه ولياً لهم! ويتبرأ منهم. قال تعالى: ﴿**كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[1].

(١) الحشر: ١٦.



- **ضعف الطالب والمطلوب**

ومن الآيات الأخرى في هذا البحث، قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1].

تذكر لنا هذه الآية الكريمة مثلاً عظيماً من الأمثال التي وردت في القرآن والتي لا يعقلها إلا العالِمون كما ينص القرآن نفسه على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[2]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[3].

أما المثل الذي يضربه القرآن في هذا الموضوع فهو أروع الأمثال التي تصور لنا حال الذين يعبدون آلهة من دون الله، وتبين لنا بصورة مدهشة ودقيقة ومؤثرة حال الضعف والهوان الشديد الذي تتصف به تلك الآلهة المزيفة، ويعتمد هذا المثل القرآني على بيان حال أحد مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي

---

(١) الحج: ٧٣.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

(٣) الإسراء: ٨٩.

تتصف بأنها من الأمور التافهة في نظر الناس، وهو الذباب، ومع ذلك فإن تلك الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة حتى لو كانت مجتمعة!! بل تترقى الآية الكريمة في بيان ضعف هذه الآلهة وهوانها، فهي ليس فقط عاجزة عن خلق الذباب، بل إن سلبها الذباب شيئاً لا تستطيع استنقاذه منه!!! فهل يمكن للإنسان أن يعبد ويطيع آلهة بهذا الضعف؟! ثم يقول تعالى: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ أي أن الآلهة ضعيفة والمطلوب ضعيف، فهؤلاء وصلوا إلى هذه الحالة لأنهم ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[1]، فمن لم يقدر الله حق قدره سوف يضيع في أودية الآلهة الضعيفة المزيفة ويسقط في الهلاك والضياع.

● فاعبدني وأقم الصلاة لذكري

ومن الآيات الأخرى أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي يَامُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾[2].

(١) الحج: ٧٤.

(٢) طه: ١١-١٤.

فالله سبحانه يأمر نبيه موسى عليه السلام بالاستماع إلى الوحي، وأول هذا الوحي هو التوحيد ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ ثم يأتي بعد التوحيد مباشرة (العبادة) في قوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يطلب من موسى عليه السلام أن يتقدم إليه بصفة العبادة أي لا أريد منك أمامي مقاماً غير مقام العبادة والعبودية، ثم قال: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ وذكر الصلاة هنا باعتبارها أعظم العبادات، إن قُبلَت قُبلَ ما سواها، وإن رُدَّت رُدَّ ما سواها، وهي عمود الدين، ومعراج المؤمن، فالصلاة دائماً تُذكر على أنها المثال الأعظم لجوهر العبادة والتقرُّب نحو الحق سبحانه وتعالى، فلو انقطعت الصلاة بين العبد وربه سبحانه سوف تغلق جميع منابع الاتصال بعالم النور والكمال وتسقط قيمة جميع الأعمال العبادية الأخرى.. ولذا قال: ﴿وَأَقِمْ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾، أي أن جوهر الصلاة هو ذكر الله عز وجل، أي لا بد عليك أيها الإنسان أن لا تنسى الله الذي خلقك وأفاض عليك نعمة الوجود، وليس المقصود هنا الذكر اللفظي على اللسان فقط، وإنما الذكر القلبي، أي أن قلب الإنسان وباطنه لا بد أن يبقى منوراً بالنفحة الإلهية والنور الرباني الذي يمنعه من اقتراف المعصية وارتكاب الذنب.. ولذلك نجد القرآن الكريم يركّز على موضوع الغفلة،

ويؤكد أن سبب المعاصي والابتعاد عن الله سبحانه وتعالى هو الغفلة والإعراض عن ذكر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾[1] ومن المعلوم أن (الضنك) يعني الضيق، أي تكون حياة الإنسان في ضيق على جميع مستوياتها، لأن جميع الأبواب التي يطرقها الإنسان من دون الله كالمال والشهرة والامتيازات الدنيوية لا يمكن لها أن تجلب الاطمئنان الحقيقي لنفس الإنسان.. لأن الإنسان الذي يكسب المال ويعتقد أن الكمال الحقيقي في كثرة الأموال سوف يبقى مهموماً وقلقاً في الحفاظ على المال وكيفية توسعته ولا تقنع نفسه بمقدار محدود من المال لذلك نجده من الناحية النفسية مهموماً وقلقاً بالرغم من أنه يتمتع بلذّة المال فتكون معيشته في ضنك وضيق لأنها لا تعتمد على ذكر الله والارتباط بالغني المطلق، قال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2] ويؤكد القرآن على أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأن حياتهم مستندة إلى الذكر المستمر لله عز وجل وقلوبهم مطمئنة فلا يعتريهم خوف ولا يصيبهم حزن.

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) الرعد: ٢٨.

يقول العلامة الفيض الكاشاني في قوله تعالى: ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[1] قيل: سكارى من كثرة الهم، وقيل: من حب الدنيا، كما قيل أن المراد به هو السكر من الخمر - أي معناه الظاهر- لكن لا ينفي أن فيه تنبيهاً على سُكر الدنيا، حيث بيّنَ فيه العلة، فقال تعالى: ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

وكم من مصلٍ لم يشرب الخمر، وهو لا يعلم ما يقول في صلاته!! وعليه فإن جوهر الصلاة وحقيقتها هو الذكر وأن الإنسان المصلي لا بد أن يكون على ذكر من الله سبحانه لأن الذكر هو سبب الكمال والقرب منه تعالى. قال سبحانه: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2].

فالصلاة هي شعار العبودية وركن العبادة الأعظم الذي نادى به جميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام، وهي باب الأعمال والفيوضات الربانية، وعمود الدين، ومعراج المؤمن.. لأنها الذكر الأكبر لله سبحانه وتعالى.

● السير في صراط العبادة لا نهاية له

قلنا في بحوث سابقة أن العبادة هي سير تكاملي نحو

---

(١) النساء: ٤٣.

(٢) البقرة: ١٥٢.

الغني المطلق، وكلما تقدم الإنسان خطوة نحو الكمال فإنه سيجد كمالاً آخر أعلى من الكمال الأول الذي حصل عليه، فيطلبه أيضاً ثم يجد كمالاً أعلى وأعظم.. وهكذا يسير العابد في صراط لا متناهي من الكمالات اللامتناهية نحو الحق سبحانه وتعالى. فينتج من هذه المعادلة أن يبقى متلبساً بصفة العبودية، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى مقام ما أو درجة معينة من الكمال ويقول اكتفيت واستغنيت!! كلا، لأنه متجه نحو الكمال اللامتناهي.. الذي لا حدود له.

• ضرورة الالتزام بالشريعة في كل درجات العبادة

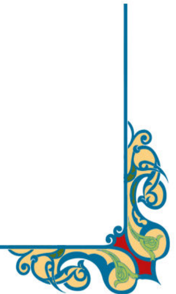
ومن هنا نعرف عظمة صفة (العبد) بالنسبة لنبينا الأكرمﷺ، وهو صاحب الشريعة والرسالة السماوية الخاتمة التي جاء بها أعظم عابد عرفه الكون والوجود.. لأنهﷺ أدرك حقيقة فقرة أمام الكمال اللامتناهي فلم يفارق مقام العبودية، فهذه الشريعة الخاتمة التي أتى بها هذا العبد الحقيقي لله سبحانه، لا يمكن لفرد معين من الناس أن يدعي الوصول إلى مرتبة من المعرفة ويقول لا أحتاج لهذه الشريعة بعد ذلك!! وأني وصلت إلى درجة من القرب الإلهي وأنا في عالم الدنيا لا أحتاج معها إلى الالتزام بالشريعة الخاتمة، كلا، إن هذه الشريعة مات عليها خاتم

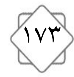
الأنبياء والمرسلين.. إذ لا شك أنه ذهب في هذا العالم وهو يتشرع بهذه الشريعة وعباداتها من الصلاة والصوم وغيرها، ومن هنا نستطيع القول أن فلسفة ختم النبوة جاءت من أن درجة المعرفة الإلهية عند خاتم الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن يصل إليها مخلوق بعد النبي صلى الله عليه وآله.. وهو مع وصوله إلى هذه المرتبة العظيمة نجده يسجد ويركع ويصوم ويجاهد نفسه بهذه العبادات.. إذن لا يمكن لمن يدعي العبودية لله لكنه يتعبد بعبادات أخرى أو يستغني عن عبادات الشريعة الخاتمة، لأنها ضرورة وجودية وتكوينية لا يمكن أن تنفك بالنسبة للعلاقة بين الإنسان الفقير المحتاج وبين الله سبحانه وتعالى الغني المطلق. ما دام في نشأة الدنيا.

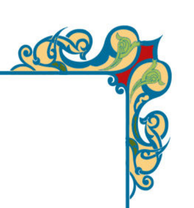
ولذلك عندما أراد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أن يبيّن حقيقة العبادة والصلاة لمجتمع قريش الذي هو بمستوى من الجهل بحيث يصفه القرآن بالمجتمع الجاهلي، نجده أنه ذكر لهم بعض التشبيهات من عالمهم المادي المحسوس - كلم الناس على قدر عقولهم- فعندما يتحدث عن ضرورة الصلاة في حياة الإنسان يقول: (لو كان على باب أحدكم نهر فاغتسل في كل يوم منه خمس مرات أكان يبقى في جسده من درن؟ فقالوا: لا، فقال: فإن

مثل الصلاة مثل النهر الجاري... الحديث)... وبالفعل انظروا فعلاً لشخص يغتسل في اليوم خمس مرات، هل يبقى على جسده وسخ أو درن؟ كلا، فهو صلى الله عليه وآله يريد أن يقول لهم أن الصلاة والعبادة تربطكم بالغني المطلق، تربطكم بمصدر الطهارة والنور والكمال.. إذ الإنسان عندما يذنب ينقطع عن الصلة بالله سبحانه وتعالى فيكون وسخاً فيه درن الشهوات وظلمانية الذنوب.. والصلاة هي نهر جاري تزيل هذا الوسخ وتعود بالإنسان إلى الطهارة الحقيقية، فالعبادة بمعنى الخضوع والتذلل لله سبحانه وتعالى شيء مركوز في نفس الإنسان فإننا نرى الآن في كل بقعة من بقاع الأرض هناك معبد.. هذه القارات الموجودة على سطح الأرض في كل زواياها من المدن إلى الكهوف والقرى يوجد معبد على اختلاف ثقافاتها وقومياتها ومستوياتها المعرفية والحضارية.. ففي أقاصي أفريقيا والأمازون مثلاً تجد أن الناس لا تعرف حتى القراءة والكتابة.. بل نجدهم لا يلبسون لباساً كاملاً على أجسادهم ومع ذلك تجد أن لهم معابد وطقوس خاصة .. وهذا يدل على أن هناك شعوراً مركوزاً في نفس الإنسان وهو التذلل أمام عظمة هذا الكون بحيث يجد الإنسان نفسه ضعيفاً مقهوراً محتاجاً لمصدر الوجود والكمال الذي يقف

وراء هذه النواميس العظيمة التي تحكم نظام الوجود اللامتناهي .. وفي هذه النقطة والمرحلة تأتي الشرائع والرسالات السماوية لتبين للإنسان الطريق الصحيح للارتباط بخالق الكون وصانعه.







المبحث التاسع

● الإله الحقيقي لا يأفل من حياة الإنسان

نحاول في هذه المحاضرة أن نتكلم عن مكانة العبادة والاتصال بالله سبحانه وتعالى في حياة الإنسان في ضوء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[١].

ولسنا هنا بصدد البحث التفسيري المفصل لهذا النص القرآني المبارك، ولكننا نأخذ منها محل الشاهد فيما يرتبط ببحث العبادة في حياة الإنسان.

والكلام المنقول في هذه الآيات الكريمة – كما هو معلوم– منسوب للنبي إبراهيم سلام الله عليه.. ومحصل الكلام أن كل شيء يأفل أو يغيب عن حياة الإنسان فلا يمكن أن يكون إلهاً

---

(١) الأنعام: ٧٦-٧٨.

يعبد أو ربّاً يطاع. ولذلك قال سلام الله عليه ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ لأن الإنسان محتاج إلى الارتباط الدائم والمستمر بمصدر الكمال والنور الذي يغني فقره وينير حياته ويلبي حاجته الحقيقية، كما قال في آية أخرى: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

فإن الهداية والإطعام والإسقاء والشفاء والإماتة والإحياء والمغفرة وغيرها من الكمالات لا يمكن أن يلبيها ربٌّ وإله يغيب عن حياة الإنسان، ومن المؤكد حينئذٍ أن الإله المحبوب هو الإله الذي لا يأفل عن حياة الإنسان.

لكن مع شديد الأسف أن حياة الإنسان ممتلئة بالآلهة الآفلة المزيّفة، لكن الإنسان باعتبار حاجته إليها يتصور واهماً أنها هي التي تلبّي حاجته حقيقةً فيتخذها آلهة تعبد من دون الله، وهي إما أن تكون أصناماً مادية أو أصناماً معنوية، وما أكثر الأصنام المعنوية على طول الزمان، فكل شيء يعتقد الإنسان أن له القدرة على تلبية حاجاته فيتخذه ربّاً وإن لم يسمِّه ربّاً، ومن

(١) الشعراء: ٧٨-٨٣.

أخطر الأمور التي تصيب الرسالات السماوية أن يتخذ الإنسان أهل المناصب الدينية أرباباً من دون الله.. بل إن ذلك من أشد انحرافات الرسالات السماوية على طول التاريخ الإنساني، لأن الهدف الأوحد لرسالة السماء هو عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا شريك له، كما يتحدث القرآن عن ذلك في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

فأصحاب الشأن الديني مهما علا شأنهم فإن وظيفتهم أن يربطوا الناس بالله سبحانه وتعالى وليس أن يكونوا هم بديلاً عن (الله) لو صحَّ التعبير!! فهؤلاء وغيرهم من الآلهة المزيّفة هم فقراء ومحتاجون حقيقةً فكيف نتخذهم أرباباً أو آلهة تطاع وتعبد؟!

إن من أهم الركائز في العقيدة الصحيحة أن يكون الإله المعبود حاضراً بنوره في جميع مستويات حياة الإنسان، لذلك نجد القرآن يصف الحياة الخالية من النور الإلهي بأنها ظلمات.. فتأتي الرسالات السماوية لتخرجكم من الظلمات إلى النور.. أما

(١) التوبة: ٣١.

الـذين كفـروا فأوليـاؤهم الطـاغوت يخرجـونهم مـن النـور إلى الظلمات!!

فعليك أيها الإنسان العابد المطيع لله سبحانه .. السائر في صراط الكمال أن تقول كما قال إبراهيم عليه السلام: إني لا أحب الآفلين .. ويجب أن يكون النور الإلهي حاضراً في كـل حياتـك.. وأن لا تصيبك الغفلة والنسيان لأن ذلك سيؤدي بـك إلى السقوط في أودية الظلمات والتشبُّث بأذيال آلهة مصطنعة لا تملـك نفعـاً ولا ضراً ولا حياة ولا نشوراً.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾[1].

• بعض ثمرات العبادة الحقيقية ونتائجها

١. آثار الصلاة

إن الإنسان بمقتضى الصلاة المفروضة يومياً سيتحقق عنده الاتصال يومياً خمس مرات بالله سبحانه وتعالى، وإن كـان الإنسان المؤمن يستطيع أن يجعل جميع لحظات حياته عبادة وطاعـة وتقرُّب إلى الله عز وجل إذا نوى القربة في جميع أعماله وأفعاله.

(١) الأحزاب: ٤١-٤٣.

ومن آثار الاتصال الحقيقي في الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، فأي صلاة هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر؟ لا شك أنها الصلاة الحقيقية الواقعية، أي التي تحقق الاتصال التكويني بالله سبحانه، فحال الإنسان المرتبط بالله كحال هذا الإنسان الذي يغتسل من النهر الجاري خمس مرات يومياً.. فهو مرتبط بمصدر الكمال والنور ولا يمكن أن يصدر منه الفحشاء والمنكر.. ولتقريب ذلك نشبّه حاله بحال الماء القليل المتصل بالماء الكثير كماء النهر مثلاً، فهو لا ينجس بملاقاة النجاسة لأنه معتصم، والإنسان المتصل بالله سبحانه وتعالى يكون معتصماً به عز وجل فلا يمكن أن يصدر منه الذنب أثناء اتصاله الحقيقي.. وقد ورد أن الصلاة هي معراج المؤمن.. والمقصود الصلاة الحقيقية التي يتكامل بها الإنسان نحو الحق عز وجل. ومن هنا ورد عن المعصومين عليهم السلام: (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً) وورد أيضاً: (لا صلاة لمن لم يطع الصلاة، وطاعة الصلاة أن ينتهي المصلي عن الفحشاء والمنكر).

٢. آثار الصوم

يؤكد القرآن الكريم على أن الصوم من العبادة التي تثمر

التقوى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1].

ولا شك أن الصوم بمعناه الحقيقي يكون منتجاً للتقوى، لأنه عبادة حقيقية تربط الإنسان بمصدر الكمال، لأن الصوم عبارة عن الامتناع عن الشهوات والملذات.. والإنسان في حال الصوم الحقيقي لا يمكن أن تصدر منه المعصية، ومن هنا ورد: (من صام صامت جوارحه) لأنه ملتفت نحو الحق عز وجل ومدبِر عن الملذات .. بحيث يصل الأمر إلى أن يكون نومه عبادة وأنفاسه تسبيح لله سبحانه وتعالى.

٣. آثار الجهاد

لا شك أن الجهاد من أعظم العبادات سواء كان الجهاد الأكبر أم الجهاد الأصغر، وهو باب فتحه الله لخاصة أوليائه كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام.. وهو من أعظم الأبواب والطرق للسير في التكامل والوصول إلى ساحة القُرب والزُّلفى، إذ أن الإنسان في عبادة الصوم مثلاً يمتنع عن الأكل والشرب ويضحي بالشهوات والأمور المادية، أما في الجهاد فإن التضحية تكون بالنفس ويكون المجاهد الحقيقي مرتبطاً ارتباطاً نهائياً بالله

(١) البقرة: ١٨٣.

عز وجل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

• ارتكاب المعصية خروج عن صراط العبادة

قلنا أن حياة الإنسان العابد لا بد أن تكون واقعة في صراط العبادة بجميع تفاصيلها.. بمعنى أن يتحقق الخضوع والارتباط بالله عز وجل في جميع أعمالنا وأفعالنا، ومن هنا يتضح أن الإنسان أثناء ارتكاب المعصية يخرج عن هذا الصراط ويكون متمرداً على الله.. وبالتالي سيكون خاضعاً لغير الله من النفس الأمارة بالسوء أو الشهوات أو الشيطان.. فيكون عابداً لهذه الأمور عند ارتكابه الذنب والمعصية.. ويخرج عن السجود لله عز وجل.. ولذلك نجد أن المعصوم عليه السلام تكون حياته سجدة دائمة ومستمرة لله سبحانه وتعالى، لأنه معتصم به سبحانه ولا يمكن أن ينقطع هذا الاعتصام، فالعبادة والعبودية الحقيقية تنتج العصمة لا محالة.

في ضوء ذلك نستطيع أن نفهم قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[2] وإن كان البعض يفسرها بضرورة

(١) العنكبوت: ٦٩.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

الوحدة الإسلامية بين مذاهب المسلمين وهو تفسير صحيح حسب الظاهر، لكن ذلك لا يمنع من ذكر تفسير آخر له علاقة ببحث العبادة، لأن الاعتصام بالحبل يعني أننا واقعون في بئر أو حفرة كبيرة ونحاول أن نتمسك بالحبل للخلاص والنجاة من الهلاك وهذا هو حال الإنسان في عالم الدنيا والمادة والشهوات، ولكي يتخلص من بئر الدنيا عليه أن يعتصم بحبل الله ولا يتمسك بحبال أخرى لأنها سوف تتقطع وتسقط به في الهاوية ووادي الهلاك.

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً**﴾[١] لأن الإنسان متمسك بحبل الشيطان فلا عاصم له من الخسران المبين، وقال تعالى: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً**﴾[٢] أي يمد لهم حباله ويتوهمون أنها تخلّصهم وما هي إلا غرور!

● **الاعتصام بحبل الله**

والإنسان الذي يعتصم بالله سوف يصل إلى مرتبة تمنعه من ارتكاب الذنب ومخالفة الشريعة فيكون معصوماً ظاهراً

---

(١) النساء: ١١٩.

(٢) النساء: ١٢٠.

وباطناً وظاهراً على جميع مستويات حياته، ويكون مخلصاً خالياً من شوب المعصية والشهوات، فالاعتصام بحبل الله يعطينا معنى عميق للعبادة، وكأن حبل الله هو الوسيلة الرابطة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، إذ بعد أن وصل الإنسان أو هبط إلى عالم الدنيا الذي هو عالم بعيد عن عالم النور ومصدر الكمال الحقيقي فلا بد من وجود وسيلة أو رابطة يتحقق من خلالها الرجوع أو الصعود نحو عالم الملكوت وهي حبل الله الذي يجب أن نتمسك أو نعتصم به للنجاة من هذا العالم السفلي والخروج من ظلماته إلى نور الهداية الإلهية.

● أوهن البيوت لبيت العنكبوت

في ضوء حقيقة الاعتصام بالله سبحانه وتعالى، وأن ذلك الاعتصام هو روح العبادة وجوهرها يأتي هذا المثل الذي يضربه القرآن الكريم لتصوير حال الذين يتمسكون بحبال أخرى غير حبل الله، وهو قوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾[1].

---

(١) العنكبوت: ٤١-٤٣.

إن هذا النص القرآني المبارك يصور وبشكل دقيق ورائع حال الذين يتخذون ولياً من دون الله سبحانه.. أو يتمسكون بحبل غير حبل الله سبحانه وتعالى.. إذ أن هذا الولي أو الحبل مهما كان كالمال والسلطان والنفوذ وجميع الإمكانات الدنيوية فهو لا يتعدى في ضعفه وهوانه بيت العنكبوت، والإنسان الذي يفعل ذلك يكون حاله حال العنكبوت التي اتخذت هذا البيت الواهن الضعيف لكي تحتمي به!! يقول العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان: ((بيت العنكبوت ليس له من آثار البيت إلا اسمه، فهو لا يدفع حراً ولا برداً ولا يكن شخصاً ولا يقي من مكروه)) وفعلاً فهذا البيت لا جدران فيه ولا سقف ولا باب ولا ستر.. ويمكن إزالته بأدنى حركة من الهواء!! وهذا هو مثل كل إنسان يتخذ ولياً من دون الله سبحانه.. وقد ذكرنا أن عالم الدنيا مملوء بالأصنام المعنوية والمادية التي يتخذها بعض الناس أولياء من دون الله، فيتوهم أن كماله ونجاته وخلاصه في المال أو الشهرة أو النفوذ أو الأهواء والشهوات والملذات الفانية.. والحقيقة أن هذه الأمور عبارة عن حبال وهمية لا ينبغي للإنسان الباحث عن الكمال الحقيقي التمسك بها، لذا يكون الإنسان العابد لله سبحانه وتعالى متمسكاً بولاية الله وداخلاً في حصن

هذه الولاية الإلهية. قال تعالى عن لسان إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[1] حيث يؤكد هذا النص المبارك أن عباد الله لا يمكن أن يقعوا تحت سلطان إبليس لأن عبادتهم وارتباطهم الحقيقي بالله عز وجل لا يمكن أن يجتمع مع سلطان الشيطان، إذ أن الإنسان العابد لا سلطان عليه إلا سلطان رب العزة والجلال.

ولذا قلنا في بحوث سابقة أن باب العبادة هو من أعظم الأبواب التي تكلم عنها الأنبياء والمرسلون وأولياء الله الصالحون، وإذا أراد القرآن أن يذكرهم أو يذكر قصصاً من حياتهم فإن أعظم وصف يصفهم هو أنهم (عباد الله)، قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[2]، إن هذه الآية الكريمة بصدد مدح هذا الإنسان الذي التقاه موسى عليه السلام، فلم تذكره بلفظ آخر كالولي أو العارف أو العالم بل قالت: عبداً من عبادنا! وكذلك الحال في آية أخرى من

(١) الحجر: ٣٩-٤٢.

(٢) الكهف: ٦٥.

سورة يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[1]، فكل من كان من العباد المخلصين سيصرف الله عنه السوء والفحشاء، لأنه مخلص لا شوب فيه غير نور عبادة الله سبحانه.

وكذلك الحال في آية أخرى حيث يقول تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾[2].

فعيسى عليه السلام يقول إني عبد الله مع أنه رضيع وغير مكلف بصلاة أو صوم أو أي عبادة أخرى! وهذا يعني أن المراد بالعبودية هنا هي العبودية الحقيقية وهي الارتباط التكويني بالله عز وجل حيث يرى نفسه عبداً مملوكاً لله عز وجل وهذا المعنى من العبودية هو الذي لا بد أن يحكم حياة الإنسان وكيفية ارتباطه بالغني المطلق جل جلاله وليس العبودية فقط في العبادات الموجودة في الشريعة كالصلاة والصوم وغيرهما.

وهكذا في آية أخرى نجد وصف العبد أيضاً، قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَت رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[3]، فذكر زكريا عليه السلام بأنه (عبد)

---

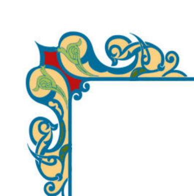
(١) يوسف: ٢٤.

(٢) مريم: ٢٩-٣٠.

(٣) مريم: ٢.

وقد أكدنا في محاضرات سابقة أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يعطي لهؤلاء مقاماً عظيماً أو درجة عليا من درجات الكمال فإنه يسبقها بمرتبة العبودية، كما قال في سورة الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[(١)] .

(١) الإسراء: ١.



المبحث العاشر

• اتباع النبي الخاتم صلى الله عليه وآله من أعظم العبادة

كنا نتحدث عن الآثار المترتبة على مقام العبادة وذكرنا أن النبي الخاتم صلى الله عليه وآله هو أعظم عبد عرفه الكون والوجود ومن هنا كانت الأمة التي بعث فيها هي خير أمة أخرجت للناس وذلك لأنها تتبع هذا المقام العظيم في المعرفة الإلهية والتوحيد الحقيقي.

لننظر كيف يتحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1].

إن الذين آمنوا تراهم (ركعاً) (سجداً) وهما صيغة مبالغة من الركوع والسجود أي أن المؤمنين وأتباع النبي الخاتم صلى الله عليه وآله

---

(١) الفتح: ٢٩.

كثيرو الركوع والسجود وهما شعار العبادة الحقيقية التي هي التذلُّل والخضوع لله سبحانه وتعالى، وهذا مثلهم في جميع الكتب السماوية من التوراة والإنجيل، فأمة العبد الحقيقي وخاتم الأنبياء هي أمة ساجدة راكعة لله سبحانه وتعالى .. وسجودها هو نتيجة لارتباطها بالله عز وجل من خلال صاحب الرسالة الخاتمةصلى الله عليه وآله. والسجود بهذا المعنى يجعل باب الكمالات مفتوحاً أمام الإنسان بحيث تظهر عليه علامات الكمال والارتباط بعالم النور ظاهراً وباطناً، لذا قال: ﴿**سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ أي أن هناك نورانية وهيبة خاصة تظهر على العابد الحقيقي لأن حياته عبارة عن سجود للغني المطلق جل جلاله.

- **عباد الرحمن كما يصفهم القرآن**

تحدث القرآن الكريم عن عباد الرحمن وصفاتهم في آيات كثيرة، لكن هناك مجموعة من الصفات ذكرت في موضع واحد في سورة الفرقان من الآية ٦٣ إلى الآية ٧٤، وسوف نتعرض لها حسب الترتيب الموجود في الآيات الكريمة.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾

الصفة الأولى التي يذكرها القرآن هو أنهم (عباد الرحمن) ومن الناحية اللغوية أنه أضافهم إلى الإسم الإلهي (الرحمن) وهو

نوع تعظيم وتشريف لهم لأن الإسم (الرحمن) هو أوسع الأسماء الإلهية، وقد ذكر المحققون في بحث الأسماء الإلهية أن الله خلق كل شيء من الرحمة.

﴿يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً﴾

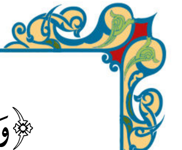
إن العابد الحقيقي الذي يدرك حقيقة نفسه وافتقارها وحاجتها أمام الحق سبحانه وتعالى لا يمشي على الأرض متكبراً متبختراً.. بل يكون مشيه بوقار وتواضع وتذلُّل لله سبحانه وتعالى وهو من الآثار المترتبة على الارتباط الحقيقي بالله عز وجل، فيمشون على الأرض هوناً.

قال العلامة الطباطبائي قدس سره: والهون على ما ذكره الراغب التذلُّل، والأشبه حينئذٍ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم، فهم في أنفسهم متذللون لربهم ومتواضعون للناس لما أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق، وأما التذلُّل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهمية فحاشاهم.

وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبُّر ولا تبختُر[1].

---

(١) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج١٥، ص١٢٣.



﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمْ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً﴾

هذا حال عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون.. الناس الذين لا يعلمون.. قالوا: سلاماً، وليس معنى ذلك أنهم يقولون لفظ: سلام، بل المقصود أن عباد الله لا يردون على الجاهل بالجهل وإنما يقولون قولاً فيه سلام لهم وللمخاطب.. أي يحصل الجاهل منهم على فائدة تدفع جهله.. فعباد الله لا يمكن أن يؤاخذون الجاهل بجهله وإنما يكون ردهم سلاماً للجميع. لأن حالة الاتصال الدائمة بالله سبحانه وتعالى والتي هي جوهر العبادة تمنع هؤلاء العباد من الرد على الجاهل بجهل آخر.. بل هم يعطفون على الجاهل ويستغفرون له إن أخطأ بحقهم.. لأنهم حسب هذه الآية الكريمة (عباد الرحمن) فلا بد أن تتجلى رحمة الله سبحانه وتعالى في حياتهم ومعاشرتهم مع الآخرين.. وقد ورد في السيرة المباركة لنبينا الأكرم صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِه أنه كان يترحّم على الناس الذين يسببون له الأذى من قومه، فيضربونه بالحجارة.. وهو يقول: اللهم ارحم قومي فإنهم لا يعلمون!!

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً﴾

يبين هذا المقطع القرآني حال عباد الرحمن في الليل، والبيتوتة هي إدراك الليل، أي يدركون الليل وهم في حالة

السجود والقيام، ومن الواضح أن السجود والقيـام همـا الوجـه الأبرز للعبادة والتهجُّد ليلاً.. فهم في النهار يمشون على الأرض هوناً وفي الليل سجداً وقياماً.. فيكون يومهم بليله ونهاره عبـارة عن عبادة مستمرة وتقرُّب دائم من الحق سبحانه وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ...﴾

إن عباد الرحمن يطلبون من ربهم أن يصرف عنهم عـذاب جهنم.. ولم يقولوا اصرفنا عن عذاب جهـنم، وفـرق كبـير بـين التعبيرين.. لأن عذابها كان غراماً، والغرام هو ما ينوب الإنسان مـن شـدة أو مـصيبة فيلزمـه ولا يفارقـه.. لأن جهـنم هـي دار العذاب والبُعد عن رضا الله سبحانه وتعالى فلا يمكن أن تكـون مستقراً ومقاماً حسناً للعباد، ولـذا قـالوا: ﴿إِنَّهَـا سَـاءَتْ مُـسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾.

صفة أخرى من صفات عباد الله وهي القوام في الإنفاق وهو التوسُّط العادل بين الإسراف والتقتير، فمن آثار العبادة والارتبـاط بالله عز وجل أن يخرج العابد من دائرة الإسراف وهو الخروج عـن الحد المطلوب من الإنفاق في جانب الزيادة وعدم السقوط في دائـرة الإقتار وهو التقليل في الإنفاق عن الحد المطلوب.

والمعنى أن حياة عباد الرحمن مبنية على القصد والاعتدال، فلو كانوا أغنياء لا ترى عليهم مظاهر الترف والتبذير، ولا مظاهر البُخل والتقتير، فتكون حياتهم مقتصدة، والقصد في الغنى هو فضيلة العدل في استعمال متاع الدنيا بحيث لا يقع في الإسراف والتبذير ولا يقع في البُخل والتقتير.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾

هذا المقطع المبارك من الآيات الكريمة يمثل المحور الرئيسي الذي تدور عليه الصفات الكريمة التي يذكرها القرآن لعباد الرحمن.. وهو أنهم واصلون إلى مرتبة التوحيد الحقيقي في جميع مستويات حياتهم: ﴿لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ ي أنهم مبرّئون من الشرك والوثنية.. فهم متوجهون بكل وجودهم ودعائهم إلى خالقهم ومولاهم الحقيقي عز وجل ولا يلتفتون لأي إله آخر سواء كان من الآلهة المادية أو المعنوية، فهم (عباد الرحمن) لا عباد غيره!! ومن هنا تكون حياتهم شجرة مثمرة بجميع ثمار الفضائل والكمالات الحقيقية لاستنادها إلى أصل ثابت وهو التوحيد. كما قال تعالى في بيان هذه الحقيقة: ﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾

إن عباد الله .. وعباد الرحمن لا يرتكبون هذه الموبقة العظيمة والذنب الذي هو من الكبائر.. وهو قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.. كيف ذلك وهم يعلمون أن من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً.. وهم يعلمون أن الاعتداء على النفس المحترمة هو اعتداء على الحرمة الإلهية.. فمن جهة أنهم عباد الله لا يمكن أن يصدر منهم هذا الفعل المشين والكبيرة الموبقة.

﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾

إن عباد الرحمن الذين هم في حصن الولاية الإلهية لا يمكن أن يرتكبوا فاحشة الزنا.. وحسب تعبير القرآن: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[2].. لأن ارتكاب هذا الفعل هو اعتداء على حدود الله وانتهاك لحرماته.. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ .. والإثم هو وبال الخطيئة.

﴿وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾

---

(١) إبراهيم: ٢٤-٢٥.

(٢) الإسراء: ٣٢.

إن الزور يعني في اللغة تمويه الباطل بما يوهم أنه حق، وبذلك يشمل الكذب وكل لهو باطل.. وبذلك يكون المعنى أن عباد الرحمن لا تصدر منهم شهادة كاذبة كما أنهم لا يحضرون مجالس الباطل.. لا يشهدون الزور مطلقاً .. لأن من يدخل في مرتبة (عباد الرحمن) يكون دائماً في صراط الحق .. وأرض الطيبات.. والولاية الإلهية.. فحياته لا يشوبها أي نوع من أنواع الباطل سواء كان باطلاً مادياً أو معنوياً.. وهذا أثر من آثار التوحيد والعبادة الحقيقية.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾

اللغو: كل ما لا يُعتَد به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي.. وهو بهذا المعنى يعم جميع المعاصي.. فعباد الرحمن عندما يمرّون على اللغو بكل معانيه يمرّون وهم معرضين عنه منزهين أنفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهل اللغو أو مجالستهم.. أي أنهم كرام في حياتهم القائمة على عبادة الله سبحانه وتوحيده.. ومن هنا لا يمكن أن يشوبها لغو في فعل أو قول.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾

لا شك أن الكون كله آيات لله سبحانه وتعالى.. وأن معرفة هذه الآيات والتفكُّر فيها يهدي إلى الحق، كما قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١]. إن القرآن الكريم في هذا المقطع يؤكد أن عباد الرحمن هم أكثر الناس تأثراً بهذه الآيات لأن ارتباطهم بالله وكونهم عباداً حقيقيين يعطيهم القدرة ويمنحهم البصيرة للتفكُّر في آيات الله التي تملأ الكون.. وبالتالي فإنهم لا يمرون على هذه الآيات مرور الجاهلين.. كلا.. ومن هنا يعبّر القرآن ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً﴾ فإن الخرور هو السقوط على الأرض وهو هنا كناية عن التمسُّك بالشيء والإنكباب عليه، ويكون المعنى أن عباد الرحمن إذا ذكّروا بآيات ربهم التي فيها الحكمة والموعظة الحسنة وسواء كانت آيات آفاقية أم أنفسية لم يسقطوا عليها وهم صمٌّ لا يسمعون وعميانٌ لا يبصرون، بل يتفكرون بها ويعقلونها ويأخذون بها عن بصيرة بينهم وبين ربهم، لأنها آيات ربهم الذين يعبدونه..

• علاقة التوحيد بالإحسان بالوالدين

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[٢].

من الواضح أن هذه الآية الكريمة من الآيات الخاصة

---

(١) فصلت:٥٣.

(٢) الإسراء:٢٣.

بموضوع العبادة، وأن العبادة لا تصح إلا لله سبحانه وتعالى حسب القضاء الإلهي ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ...﴾ وهي قريبة من مضمون الآية التي افتتحنا بها البحث في نداء العبادة، أعني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾[١] وكذلك قريبة من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] فالآية الكريمة تأمر بإخلاص العبادة لله سبحانه وهو من أعظم الأوامر الدينية الذي يقابله الشرك بالله سبحانه الذي هو من أكبر الكبائر الموبقة، حيث أن الشرك بالله هو الأصل الذي تعود إليه جميع المعاصي، إذ لولا طاعة غير الله من شياطين الجن والإنس وهوى النفس والجهل واتباع الشهوات لم يُقدِم الإنسان على معصية ربه في أوامره ونواهيه.

لكن السؤال المهم هنا هو: ما هي العلاقة بين التوحيد في العبادة وبين الإحسان إلى الوالدين؟ حيث أن الآية عطفت الإحسان إلى الوالدين على التوحيد في العبادة ولا يخفى أن ذلك يعدُّ تعظيماً كبيراً لمقام الوالدين وحقوقهما على الولد.

ويمكن القول في جواب ذلك أن الشطر الأول من الآية

---

(١) البقرة: ٢١.

(٢) الذاريات: ٥٦.

يتحدث عن وجوب عبادة الرب ﴿وَقَضَى رَبُّكَ ...﴾ أي أن طلب الكمال لا بد أن يكون من خلال الاتصال بخالق الإنسان وربه ومُفيض الوجود عليه.. أي أن الرب والخالق الحقيقي هو وحده الذي يستحق العبادة والطاعة والتذلُّل لأنه مصدر الكمال والنور الحقيقي، ومن هنا يتضح معنى الشطر الثاني من الآية وهو قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾.. ژ إذ أن الوالدين هما القنوات التكوينية لوجود الإنسان في هذا العالم، أي أن الإنسان يوجد في هذا العالم - بالشكل الطبيعي - من خلال الوالدين. أو ما نسميه في الفلسفة بالعلل الوسطى، أي أن فيض الوجود جاء من هذين الطريقين (الأب والأم)، بمعنى أن الكمال الوجودي وصل للإنسان من خلال والديه، وعليه فكم لهما من الفضل على الولد في هذا العالم، لذا يكون محصل الآية هكذا: وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبهذين الطريقين الموجدين إحساناً! ولذلك تترتب الأحكام الأخرى (لا تنهرهما) و (لا تقل لهما أفٍّ) (وصاحبهما في الدنيا معروفاً)، عندما يتضجر الإنسان لا يجوز أن يقول لوالديه (أف)!! ما سبب ذلك؟ وهو من الأحكام الخاصة بالوالدين.. إذ يجوز للإنسان أن يقول لصديقه أو لزوجته أو لأي إنسان آخر (أفٍّ) ولكن ذلك محرم في حق

الوالدين، والحكمة في ذلك أن الوالدين علل وجودية وسطى لخلق الإنسان في هذا العالم ولهما آثار وجودية تكوينية على الولد، إذ لولاهما لما رأى نور الوجود في عالم الدنيا بشكله الطبيعي الخاضع لقوانين الطبيعة.. فكيف يقول لهما: أفٍّ وكيف ينهرهما؟!! هذا من جهة الولد، أما من جهة الوالدين فهناك أحكام أخرى عليهما مراعاتها كحرمة أكل الحرام والشبهات وحرمة الزنا ووجوب كون العلاقة بينهما شرعية لكي يوجد الولد في هذا العالم طاهراً زكياً كاملاً.. وأن يحسنا تسميته وتربيته.. وبذلك تظهر علامة التوحيد بالإحسان إلى الوالدين.. إذ أن مقامهما العظيم يأتي مباشرة بعد توحيد الله سبحانه وعبادته.

وكشاهد على هذا المعنى أذكر هذه العبارة الموجودة في الديانة الهندوسية التي تقول: (لأن الله لا يمكن أن يوجد في كل مكان فقد خلق الأم) وهي تعطي معنى عميقاً لدور الأم ومكانتها في هذا العالم، مع العلم أن المعنى الذي يقرره القرآن الكريم أعمق من هذه المقولة ولكننا مع الأسف نمر عليه مرور الكرام، يدرس أولادنا هذه الآية ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾ في المرحلة الابتدائية وينتهي كل شيء.. مع أنها من المقاصد العليا في الرسالة المحمدية الخاتمة.



المبحث الحادي عشر

• العبادة تعني الحياة المشرقة بنور الله

ذكرنا في بحوث سابقة أن الإله والرب المعبود الذي يستحق العباد ةالحقيقية هو ذلك المعبود الذي لا يأفل ولا يغيب عن حياة الإنسان ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: لا أحب الآفلين! وهذا هو جوهر العبادة والعبودية التي نتكلم عنها في هذه الأبحاث وهي الاتصال الحقيقي بالله سبحانه وتعالى وأن الإنسان مرتبط تكوينياً بمصدر الكمال والغنى المطلق ومن هنا يكون روح العبادة هو القرب من الله سبحانه وتعالى.. وفي حال استمرار هذا الاتصال والتقرُّب التكويني سوف لا يأفل الإله أو يغيب في حياة العابد، لأن غيبة المعبود تعني انقطاع الاتصال وبالتالي عدم وجود عبادة.. إذن في العبادة الحقيقية لا بد أن تكون حياتنا مشرقة بنور الله في كل لحظة سواء حياتنا الشخصية أو الاجتماعية أم الباطنية والظاهرية والفكرية والأخلاقية.. لأن العابد الحقيقي يستحيل أن يغفل عن فقره وحاجته للغني المطلق.. فيتوجه نحو الله الذي يعبر عنه القرآن

أنه ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] .

وفي ضوء هـذه الحقيقـة نـصل إلى نتيجـة مهمـة في بحـث العبادة وهي أن الإنسان الذي يصل مرحلة أن تكون حياته كلها مشرقة بنور الله إن هذا الإنسان لا تصدر منه المعصية أو ارتكاب الذنب، بل لا يصدر في حياته إلا الفعل الإلهي الـذي نعـبر عنـه بالعصمة التـي هـي أعـلى درجـات العبودية والقـرب مـن الله سبحانه وتعالى، وتكون حياة هذا الإنسان (إلهيـة ١٠٠٪) لأنهـا مشرقة بالنور الإلهي ولا يأفل عنها الله عز وجل.

لكننا نحن النـاس العـاديون الـذين لم نـصل لمعرفـة هـذه الدرجات العظيمة من القُرب الإلهي تجد أن حالنا عكس ذلك.. لأن كل شيء من هذه الحياة المادية الفانية تجده مشرقاً في نفوسـنا إلا الله سبحانه وتعالى فإنه غائـب مـع شـديد الأسـف.. لـذلك نحتاج من يذكرنا بالله عز وجل بـسبب غفلتنـا والحُجُـب التـي صـنعناها عـلى قلوبنـا ونفوسـنا وإلا فحاشـى لله أن يغيـب أو يحتجب لأنه نـور الـسموات والأرض، وقـد ذكرنـا في البحـث الفلسفي، أن الإنسان في الحقيقة لا يمكن أن يبحث عـن النـور، بل إننا نبحث بالنور عن الأشياء، لأن النور ظاهر بنفسه مُظهِـرٌ

---

(١) النور: ٣٥.

لغيره.. فلكي أعرف وأرى الأشياء الموجودة في الغرفة فلا بد أن أُضيء المصباح مثلاً.. وأما المصباح المضيء نفسه فهو لا يحتاج إلى شيء يظهره بل هو ظاهر بنفسه لو صح التعبير.. ومن هنا فإن الحالة الصحيحة في علاقتنا بالله سبحانه وتعالى هي لا بد أن نرى الله أولاً ثم نرى ونعرف الأشياء الأخرى به سبحانه وتعالى - لا أقصد هنا الرؤية بالبصر فإن هذا مستحيل كما هو معروف- ولذلك ورد في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة: (عميت عينٌ لا تراك عليه رقيباً..) وكأن الإمام عليه السلام هنا يريد أن يخبرنا أن العين التي لا ترى الله سبحانه وتعالى فهي عمياء.. لأنها ترى هذه الأشياء الفانية والملذات الزائلة ولا ترى الله سبحانه وتعالى وهو نور السموات والأرض!!! وأؤكد هنا أيضاً أن المقصود ليس هو الرؤية البصرية بالعين المادية وإنما المقصود الإدراك والمعرفة القلبية بأن الله حاضر في حياتنا.. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1] فالعمى الحقيقي هو العمى القلبي ويؤكد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[2] .. لذا

---

(١) الحج:٤٦.

(٢) الإسراء: ٧٢.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (لم أعبد رباً لم أره.. فقيل له كيف رأيته يا أمير المؤمنين؟ قال: ويلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان). فهو سبحانه وتعالى لا يأفل عن عباده ولا هم يأفلون عنه، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[١] وقال: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[٢] فهو المبدأ لا أول قبله، وهو المنتهى والغاية ولا آخر بعده، وما بين المبدأ والمنتهى هو الظاهر والباطن.. فلا شيء غير نوره سبحانه وتعالى مشرق في ساحة الوجود.. فكيف نعبد غيره.. ونطيع آلهة مزعومة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ولا حياة ولا نشوراً؟!!

● أينما تولوا وجوهكم فثم وجه الله

وفي ضوء حقيقة الإشراق الإلهي في عالم الوجود، نفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣].

فأينما يولّي الإنسان وجهه.. يميناً.. شمالاً.. فوق.. تحت.. في كل زوايا الوجود فهناك وجه الله.. لأنه سبحانه وتعالى محيط

---

(١) الزمر: ٦٩.

(٢) الحديد: ٣.

(٣) البقرة: ١١٥.

بنا.. نحن في عالم المادة ونشأة الدنيا لدينا وجه واحد.. أي جهة أمام واحدة كما هو معلوم.. أما بالنسبة لله سبحانه وتعالى فهو فوق المادة والزمان والمكان وهو محيط بجميع عوالم الوجود لأنه الأول والآخر والظاهر والباطن .. فيكون سبحانه وتعالى كله وجه لو صحّ التعبير.. فأينما تولوا فثم وجه الله! ووجه الله هو حقيقة هذا الوجود المتجلّي في كل النشآت والعوالم.. فهو لا يصيبه الفناء ولا يدركه الهلاك. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].

● العبادة الحقيقية هي حاجة تكوينية في حياة الإنسان

استناداً إلى أن العبادة هي اتصال تكويني يستطيع الإنسان من خلاله أن يحصل على جميع حاجاته التكوينية في مسيرة التكامل الحقيقي سوف يكون عابداً في جميع مستويات حياته.. لأن هذه الحاجة لا يمكن أن تنقطع أو يستغني عنها الإنسان في لحظة من لحظات عمره.. والعبادات المعروفة في الشريعة تسمى

---

(١) الرحمن: ٢٦-٢٧.

(٢) القصص: ٨٨.

في النظرة الظاهرية الفقهية (تكاليف) كالصلاة والصوم والحج، بمعنى أن هذه الأمور واجبة على الإنسان وفيها كلفة ومشقة، لكننا لو نظرنا بمنظار العبادة الحقيقية نجد أن جميع العبادات هي حاجات تكوينية ضرورية لا غنى عنها لنيل الكمال والسعادة الحقيقية.

إن العبادة بالنسبة للإنسان كالماء بالنسبة إلى الشجرة، فكما أن الشجرة أو النبتة تؤول إلى الموت والهلاك بدون الماء، فكذلك الإنسان بدون الارتباط بالكمال المطلق الذي يتم من خلال العبادة .. فالعبادة في حقيقتها حياة.. وكل التكاليف التي نتحدث عنها في الشريعة هي حياة تقابل الموت والهلاك، لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[1].

وهذا يعني أننا بدون الاستجابة لهذا النداء الإلهي أموات.. لأنه يقول: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي يدعوكم للحياة الحقيقية ويخرجكم من ظلمات هذا العالم المملوء بالملذات والشهوات والظلمات وأودية الهلاك.. ومن هنا لا بد أن تتغير نظرتنا إلى العبادات.. ولا ننظر إليها أنها مجرد تكاليف وواجبات

(١) الأنفال: ٢٤.

وفروض غريبة عن حياتنا.. وأننا نحتاج إلى إقناع للقيام بها عندما نبلغ سن التكليف.. كلا.. فإن العبادة لها آثار عظيمة في حياتنا بدنياً وروحياً وأخلاقياً ووجودياً.. لأنها تمثل النافذة التي يشرق منها النور الإلهي في حياة الإنسان.. فمن أشرقت نفسه بهذا النور سوف يظهر ذلك على بدنه فلا يأكل الحرام ولا يرتكب المعصية ولا يتقرب إلى الشبهات .. وكذلك يظهر ذلك على المستوى الاجتماعي من الحياة فالإنسان الذي تشرق حياته بنور الله لا يمكن أن تصدر منه الإساءة إلى الآخرين أو الاعتداء على حقوقهم أو انتهاك حرماتهم .. لأن هذا الإنسان كلما كان قريباً من الله سبحانه كانت حياته إلهية نورانية لا يوجد فيها شيء غير نور الحق سبحانه وتعالى، فإذا اعتدى على الآخرين فإن ذلك يعني وجود شيء غير الله هو الذي يحركه نحو هذا الاعتداء.. ومن هنا ننظر إلى قول رسول الله ﷺ حين يقول: حرمة المؤمن أشرف من حرمة الكعبة! نعم هكذا يرى رسول الله ﷺ الناس المؤمنين الآخرين لأنَّه ﷺ كله نور إلهي فتكون علاقته بالآخرين بهذا المستوى الذي يعتبر حرمتهم أعظم من حرمة بيت الله! ولو طبقنا ذلك على العلاقات الاجتماعية التي تحكم حياتنا لتحولت حياتنا إلى سلام دائم.. مع أصدقائنا.. أولادنا..

أزواجنا.. إخواننا.. جيراننا.. إذ تكون علاقات يحكمها النور الإلهي المشرق في حياة الإنسان.. ومن هنا يقول النبي الأكرمﷺ: الدين المعاملة! وليس الصلاة والصوم فقط، لأن العلاقة مع الآخرين والمعاملة معهم هي التي تكشف مقدار النور الإلهي الذي يحصل عليه الإنسان من خلال العبادة من الصوم والصلاة وغيرهما.. وبذلك تكون هذه العبادات صحيحة من الناحية التكوينية، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ**﴾[1] وهنا لا بد أن نسأل: كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر؟ هل إن الصلاة تتكلم وتقول أيها المؤمن لا تفعل الفحشاء والمنكر؟ بالتأكيد ليس الأمر كذلك، وإنما تنهانا عن الفحشاء والمنكر لأن الصلاة في جوهرها ارتباط بالله سبحانه وتعالى.. وبسبب هذا الارتباط تشرق نفس الإنسان بالنور الإلهي فلا يصدر منه الفحشاء والمنكر حينئذٍ.. أي تكون حياته طيبة.. طاهرة.. لا منبت فيها للمعاصي والخبائث .. وفي رواية أخرى عن النبي الأكرمﷺ حين سئل: ما هو الدين؟ قال: حسن الخلق وكرر ذلك ثلاث مرات.. بمعنى أن الدين هو جوهر الارتباط بالله سبحانه وتعالى ومن

---

(١) العنكبوت: ٤٥.

أهم آثاره على الإنسان هو حسن الخلق أي انتشار النور الإلهي في جميع مفاصل الحياة الإنسانية النفسية والروحية والأخلاقية والاجتماعية.. بل إن هذه المرتبة من الاتصال بالله سبحانه وتعالى ستكون لها آثار كبيرة على علاقتنا بالطبيعة وكل الموجودات التي تحيط بنا.. فلا يصدر من الإنسان أذى أو ضرر لمخلوق آخر.. لأنه يمتلك تلك النظرة الإلهية النورانية التي يتعامل بها مع كل شيء مخلوق لله سبحانه وتعالى جماداً أو حيواناً أو نباتاً أو أي شيء آخر.. ومن الشواهد التي تؤكد هذه الحقيقة ما ورد عن النبي الأكرمﷺ عندما رأى بعض الأشخاص يتحدثون وكل منهم على ظهر دابته وهم ليسوا في حال المسير.. فنهاهم رسول الله عن هذا الفعل وأمرهم بالنزول من ظهورها وإكمال حديثهم وهم على الأرض.. حيث قال: إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر فإن الله إنما سخرها لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشقِّ الأنفس وجعل لكم الأرض فعليها أقضوا حاجتكم. وهناك الكثير من الروايات والنصوص المعتبرة التي تؤكد الرفق بالحيوان بل والحفاظ على البيئة وعدم العبث واللهو في نظام المخلوقات.. حتى أن الصيد الذي يكون للترف واللهو يوجد فيه إشكال شرعي وأخلاقي وتكويني لأن هذه المخلوقات لم

يوجدها الله سبحانه لغرض اللهو والترفيه وإشباع الشهوات بل هي جزء من هذا العالم المترابط الذي هو تجلٍّ من تجليات الرحمة الإلهية، والإنسان هو سيد هذه المنظومة الوجودية المحكمة.. ولذلك فإن العبادات تجعلنا نبني أرواحنا ونكامل نفوسنا وعلاقتنا مع الآخرين، وعلاقتنا بالكون والطبيعة وتضعنا في صراط الكمال الحقيقي.





المبحث الثاني عشر

● **آثار العبادة الحقيقية على كلام العابد مع الله سبحانه وتعالى**

ذكرنا في محاضرات سابقة مجموعة من الآثار المترتبة على العبادة الحقيقية على الإنسان والكون بشكل عام، وفي هذا المجال نذكر أثراً آخراً للعبادة وهو طريقة الكلام التي التزم بها الأنبياء والرسل والأئمة المعصومونعليهم السلام بل وجميع أولياء الله الصالحين.. عندما يتكلمون في أدعيتهم مع الله سبحانه وتعالى.. فإن العبادة والارتباط الحقيقي بالله مصدر الكمال والغنى المطلق يعطي للإنسان العابد الشعور الدائم بالفقر والحاجة والاعتصام بالله عز وجل، وعندما نراجع الأدعية المنقولة عن الأئمة المعصومينعليهم السلام وقبلهم أدعية الأنبياءعليهم السلام التي وردت في القرآن الكريم نجد ذلك المستوى العظيم من العبودية التي تتجلى في خطابهم ودعائهم عندما يقفون بين يدي الله سبحانه، فنقرأ مثلاً في دعاء كميل المنقول عن أمير المؤمنينعليه السلام: (اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العِصَم)! وباقي الفقرات الأخرى من هذا الدعاء العظيم.. وكذلك في دعاء أبي حمزة الثمالي المنقول عن

الإمام السجاد‹، حيث نقرأ: (أنا يا ربِّ صاحب الدواهي العظمى أنا الذي على سيده أجترأ.. أنا الذي عصيت جبار السماء..).

ومن هنا لا بد أن نسأل: كيف يتكلم المعصوم مع الله بهذه الطريقة مع أنه معصوم عن الذنب؟ وما هي تلك الذنوب التي فعلها أمير المؤمنين‹ والتي يسميها تهتك العصم؟! وما هي تلك الدواهي العظمى التي يتكلم عنها الإمام السجاد ‹ وهو زين العابدين وسيد الساجدين؟!

إن أمثال هذه الأدعية تفتح لنا باباً جديداً لمعرفة العبودية الحقيقية وأثرها في حقيقة العبادة.. وهي أن المعصوم لا يرى لنفسه أي قيمة أمام الله سبحانه وتعالى.. مهما علا.. ومهما حصل عليه من درجات القرب والكمال.. فإنه لا يغفل عن حقيقته التي هي عين الفقر والحاجة إلى الكمال اللامتناهي سواء كان رسولاً أو نبياً أو إماماً أو ولياً واصلاً إلى هذه الدرجة العليا من الكمال في الوجود.. ويبقى يشعر أنه مقصّر أو مذنب أمام الله سبحانه وتعالى.. بتعبير آخر فإن نسبة المتناهي إلى اللامتناهي هي الصفر من الناحية الرياضية.. وفي التعبير القرآني والفلسفي نعبر عنه بالفقر الحقيقي.. وحيث أن المعصوم ‹ لا يغفل عن هذه

الحقيقة لأن درجته تقتضي عدم الغفلة فيبقى يرى نفسه مقصراً ومذنباً دائماً، ولا نعني بالذنوب هنا الذنوب والمعاصي الموجودة عندنا في مخالفة التكاليف الشرعية كلا! بل الذنوب التي تناسب تلك المرتبة من القرب وهو ما يعبّر عنه بالذنوب الدقّية، كما ورد هذا المعنى في الحديث المعروف: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).. ومن هنا تختلف أساليب الدعاء عند الأنبياء والمرسلين أيضاً.. وهذا الاختلاف يرجع إلى درجة المعرفة بالله سبحانه.. ودرجة المعرفة ترجع إلى درجة العبودية.. ولذلك قلنا أن درجة العبودية التي جاءت بها الشريعة الخاتمة هي أعظم درجة في القرب من الله سبحانه وتعالى.. ولهذا السبب ختمت بها الرسالات السماوية.. قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1]، وقال: ﴿**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ**﴾[2].

وعلى ضوء هاتين الآيتين الكريمتين نفهم أن أحد معاني التفضيل هو أنهم سلام الله عليهم يتفاوتون ثم يتفاضلون في مظهريتهم لأسماء الله تعالى وصفاته، وهذا يعني أن من عرف نبي الله داود عليه السلام أو يوسف عليه السلام فإنه سوف يصل بذلك إلى

(١) البقرة: ٢٥٣.

(٢) الإسراء: ٥٥.

معرفة الحق سبحانه، إلا أن هذه الدرجة من المعرفة ليست كالدرجة التي يصلها من يعرف خاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله أو أحد أنبياء أولي العزم عليهم السلام، لأن هؤلاء الرسل الكرام أفضل من غيرهم.

وهذا التفاضل في المعرفة الإلهية تكون له نتائج في البُعد العملي من حياتهم.. وهو ما نعبّر عنه هنا بـ (أدب العبودية) الذي سار عليه هؤلاء الأنبياء مع خالقهم، وكيف كانت طريقة معاملتهم مع الناس وهم في هذه الدرجة من القرب إلى الله عز وجل.

إن أهمية البعد العملي في حياة الأنبياء عليهم السلام تتجلى من حيث أن الإنسان لا بد أن يتعلم الطريقة الصحيحة في الكلام مع الله وكيفية التوجُّه إليه بالدعاء، مضافاً إلى كيفية تعاطيه مع أمثاله من الناس بالنحو الذي يوصله إلى القرب الإلهي.

إن درجة المعرفة والقُرب الإلهي والعبودية التي جاءت بها خاتمة الرسالات السماوية هي التي تفسّر لنا ما ورد عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: (علماء أمتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل) – وسواء كان المقصود من العلماء هم علماء الدين أم الأئمة المعصومين– فإن هذه الأفضلية راجعة إلى درجة العبودية

والمعرفة التوحيدية التي ساروا عليها في الشريعة الخاتمة.. فكلما اشتدت العبودية والمعرفة الإلهية اشتد معها الشعور بالتقصير والتذلُّل أمام الله سبحانه الذي خلقه ووهبه كل شيء في حياته إذ حتى القوة والقدرة النفسية والبدنية التي نعبد الله بها هي في حقيقتها مخلوقة لله سبحانه.. كما نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!! وعندما نرجع إلى الآية التي انطلق منها البحث وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[1] فقوله: الذي خلقكم هو تعليل لوجوب العبادة، أي يجب علينا عبادته وطاعته لأنه هو الذي خلقنا.. فإذا أردنا كمالاً فلا بد أن نطلبه منه سبحانه لا غيره فيتوحد في العبودية والعبادة.. وكلما ازدادت ساحة العبودية لله في حياة الإنسان ازدادت كمالاته وارتباطه بالله عز وجل.. فبعض الناس مثلاً تجد أن ارتباطه بالله سبحانه يمثل نسبة ضئيلة في حياته والنسبة الأكبر من حياته مرتبطة بحوائجه الدنيوية.. ولكن كلما تقرَّب إلى الله سوف تزداد نسبة الارتباط إلى أن تمتلئ حياته بالنور والقُرب الإلهي فيصبح وجوداً إلهياً معصوماً ويكون مرآة تنعكس فيها الصفات الإلهية كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام: رضا الله رضانا أهل البيت..

---

(١) البقرة: ٢١.

فتصبح كل حركات الإنسان وسكناته وأفكاره وظاهره وباطنه إلهياً فيكون معصوماً. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[1].. ولو تقدمنا خطوة في هذا الموضوع لوجدنا أن الكون كله مرتبط بالله سبحانه وتعالى.. وكل أجزاء الكون ساجدة مسبحة كما ذكرنا ذلك في بحوث سابقة.. والإنسان إذا ارتبط بالله هذا الارتباط الصحيح سوف يكوّن منظومة مع باقي أجزاء الكون الأخرى لتسير في صراط الكمال نحو الحق سبحانه وتعالى.. بل إن الإنسان هو مركز منظومة الكون لأنه سيد المخلوقات.. وهو خليفة الله.. وبالعكس فإن الإنسان إذا لم يرتبط بالله ارتباطاً صحيحاً ولم يمتلئ وجوده بالنور الإلهي وابتعد عن صراط الكمال فإن هذه المنظومة الوجودية سوف تتعطل وتنحرف نحو الهلاك والخراب وهذا ما تعبر عنه الآية الكريمة: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]. وإلا فإن الله تقدست أسماؤه منزّه عن إظهار الفساد بهذا الشكل الذي تتحدث عنه الآية المذكورة لأنه نور في نور وكمال في كمال..

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الروم: ٤١.

إذن فالفساد يظهر بما كسبت أيدي الناس، ولكن كيف يحصل ذلك؟ الجواب: لأن الإنسان بحكم كونه مخيراً ترك مسيرة هذا الكون السائر نحو الكمال الحقيقي.. وقد كان مأموناً على الكون لأنه خليفة الله الذي سخر له كل شيء.. فأصبحت أفعال هذا الخليفة سبباً لإرباك هذه المسيرة الوجودية بدلاً من أن تكون موجِّهة له نحو الكمال.. ومن هنا تظهر هذه الآثار السلبية كما تعبر عنها الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾[1] وعليه فإن عمران هذا العالم وكماله متوقف على اختيار الإنسان وتصرفاته وأفعاله ومن هنا يظهر الدور العظيم الذي يعطيه القرآن للإنسان وعلاقته بعالم الوجود من الناحية الوجودية والتكوينية.. فإذا صار الإنسان بهذا الشكل المحوري سوف تنسجم حركته مع المخلوقات الأخرى نحو الكمال الحقيقي.

ولتقريب هذا الدور التكويني للإنسان في العالم نضرب هذا المثال الحسي: عندما نفتح الماء لكي نروي بستاناً فيه أشجار مختلفة وفاكهة متنوعة وتم السقي بطريقة صحيحة ضمن شروطها الطبيعية.. فسوف تصل البرتقالة مثلاً إلى نضجها والتفاحة كذلك.. وهكذا.. وهنا نسأل: أن التفاحة تختلف طعماً

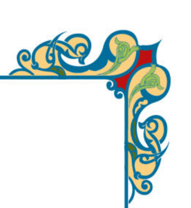
(١) الروم: ٣٦.

ولوناً ومذاقاً عن البرتقالة، مع أن الماء الذي سقاهما واحد من حيث الخصائص.. وهذا يعني أن كل شجرة أخذت كمالها من الماء بحسب استعدادها وأعطت ثمرتها الخاصة.. فالماء حقيقة سارية في البستان.. وهو واحد.. لكنه يعطي كمالات مختلفة متعددة.. وبالتالي يصبح البستان مثمراً منتجاً يسير في حركة وجودية تكاملية.. أما لو كان الماء مالحاً أو ملوثاً فتكون النتيجة هلاك البستان وخرابه لا محالة!

وهكذا هو دور الإنسان في هذا العالم.. إذ أن الإنسان الكامل هو المظهر الأتم الذي تتجلى فيه الأسماء الإلهية فيكون بوجوده الإلهي روح هذا العالم.. وكل موجودات هذا العالم محتاجة إليه لأنه يعطي كل منها كماله الخاص بمقتضى خلافته الإلهية.. وهذه الخلافة فرع من فروع العبودية.. لأنه بهذه الطريقة لا يرى لنفسه شيئاً أمام الله سبحانه وتعالى إلا العبودية.. فيكون وجوده إلهياً ويصل إلى مقام الخلافة الإلهية.. ونحن الناس العاديون كلما توسعت دائرة العبودية في وجودنا سوف نقترب من هذا الإنسان الكامل الخليفة.. فيكون كل واحد منا مستخلفاً بمقدار الدرجة التي تربطه بالله عز وجل، ومن خلال العبادات كالصلاة والصوم يوسع الإنسان هذه الدرجة وهو

سائر في صراط العبودية والتكامل اللامتناهي.

ولعل من الآثار الفقهية المهمة التي تترتب على هذه الدرجة من العبودية والارتباط التكويني بالله سبحانه وتعالى أننا لا يمكن أن نتصور تحقق الرياء في عباداتنا أصلاً، لأنه لا موضوع للرياء حينئذٍ، لأن فرض الرياء أن يوجد شيء آخر غير الله سبحانه وتعالى يكون مقصوداً بالعبادة.. فيحكم ببطلان العبادة مع الرياء، مع أن العبادة بالمعنى الذي بيّناه لا يمكن أن يفرض فيها شيء غير الله .. لأنها حاجة تكوينية للإنسان يرتبط من خلالها بالغني المطلق وحده لا شريك له.. كما أننا في حالة العطش نشعر بحاجتنا إلى الماء، فإذا حصلنا عليه وشربناه سوف نرتوي تكوينياً ولا يمكن أن نتصور أننا نرائي في شرب الماء!! فكذلك الإنسان العابد لأنه عطشان للكمال ويريد أن يروي ظمأه الوجودي من خلال العبادة والاتصال بالله سبحانه وتعالى.



المبحث الثالث عشر

• معنى السجود والركوع الفقهي في ضوء حقيقة العبادة

ذكرنا في بحوث سابقة أن العبادة بمعنى الارتباط الحقيقي والتكويني بالله سبحانه وتعالى لها عدة آثار على وجود وحياة الإنسان العابد، ومن هذه الآثار هي الآثار الفقهية، ومن خلال الوقوف عليها سوف يتبين لنا معنى السجود والقيام والركوع والصوم عن المفطرات وأعمال الحج كالطواف بل وجميع العبادات المذكورة في الفقه الإسلامي.. إذ أن هناك إشكالاً موجّهاً إلى جميع العبادات البدنية المادية كحركات السجود والركوع والطواف والسعي والقيام وغيرها، لا بد من التعرض له والإجابة عنه بما يناسب بحث العبادة، وحاصل هذا الإشكال: أننا في العبادة نعبد الله سبحانه وتعالى وننزهه عن المادة وشؤونها والحال أن السجود والركوع مثلاً هي أفعال مادية لا تخلو من البُعد المادي لأنها تقع في الزمان والمكان وهما من شؤون المادة كما هو معلوم. إذن لا بد على الإنسان أن يعبد الله بعبادة منزهة عن المادة وشؤونها، وفي هذه النقطة يظهر الإشكال

وهي أن العبادات الفقهية إذا كانت مادية فكيف تسمى عبادة في حين أن العبادة هي تنزيه الله سبحانه وتعالى عن المادة؟!

في هذا المجال يقول العلامة الطباطبائي قدس سره[1] جواباً على هذا الإشكال مع توضيح وتعليق على بعض كلماته:

إن التوجُّه العبادي إلى الله سبحانه - وهو المنزه عن شؤون المادة والمقدس عن تعلق الحس المادي- إذا أريد أن يتجاوز حد القلب والضمير وينزل على مواطن الأفعال ونحن في هذا العالم وهي لا تدور إلا بين الماديات لم يكن في ذلك بُدٌّ ومخلص من أن يكون على سبيل التمثيل.. بمعنى أن الأفعال العبادية في عالم المادة تكون على سبيل التمثيل والتشبيه، ولكن كيف يحصل ذلك؟!

يقول: بأن يلاحظ التوجُّهات القلبية على اختلاف خصوصياتها - بمعنى أن القلب يخشع ويتذلَّل وغيرهما من التوجُّهات القلبية- فلا بد أن يوجد فعل بدني في عالم المادة يشابه ويماثل هذا التوجُّه القلبي، فهناك فعل بدني يمثل الخشوع.. وهناك فعل بدني يمثل التذلُّل والخضوع.. فتصدر هذه الأفعال البدنية - الركوع والسجود- لمشابهتها التوجُّهات القلبية، لأن

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٣٣ وما بعدها.

العبادة الحقيقية هي ذلك الاتصال الحقيقي بالله سبحانه وتعالى الذي يحصل في الروح والقلب والنفس من الخشوع والتوجُّه نحو عالم الملكوت والكمالات الحقيقية، لكننا بما أننا في هذا العالم المادي - نشأة الدنيا- فلا بد أن تظهر الأفعال القلبية على البدن، فجاءت الرسالة السماوية الخاتمة لتعلمنا أن الفعل البدني الملائم للتوجُّه القلبي هو هذه العبادات من الركوع والسجود والصوم وأفعال الحج وغيرها.. فالسجدة يراد بها التذلُّل، والركوع يراد به التعظيم، والطواف في الحج يراد به تفديه النفس، والقيام يراد به التكبير، لأننا عندما يقدم علينا شخص نقوم تكبيراً واحتراماً لمقامه، والوضوء والغسل يراد به الطهارة للحضور في حضرة الحق سبحانه وتعالى، لأن المؤمن لا بد أن يحضر بين يدي خالقه وهو خالٍ من علائق المادة وظلمات الشهوات والملذات، فيتطهر بالماء، ومن الأمور الملفتة للنظر أن الماء عديم اللون والطعم والرائحة!! كما هو معلوم فيزيائياً. فهو لا يشبه أي شيء من عالم المادة - لوناً وطعماً ورائحةً- ولعل هذا من الحِكَم التي تجعل الماء مطهراً .. وهو سر الحياة.. لأن الماء فيه شبه كبير لعالم الملكوت والطهارة الحقيقية لأنه لم ينصبغ بأي صبغة من صبغات عالم المادة لو صحّ التعبير عقائدياً، ولذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ

﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1] فهو سر الحياة وسبب ديمومتها.

وفي ضوء ذلك نفهم أن التوجُّه القلبي الذي هو روح العبادة سينعكس على جميع مستويات وجود الإنسان العابد، فالركوع والسجود مثلاً نستطيع أن نتصورهما بعدة مستويات:

المستوى الأول: ركوع وسجود النفس أمام الكمالات الإلهية اللامتناهية.

المستوى الثاني: ركوع وسجود الروح أمام الأنوار الإلهية التي تملأ أركان السماوات والأرض.

المستوى الثالث: ركوع وسجود القلب عند ذكر الله وتحققه بالأسماء والصفات الإلهية التي يصل بها إلى درجة ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2].

المستوى الرابع: ركوع وسجود البدن الذي يمثل الخضوع والتذلُّل في عالم الدنيا.

المستوى الخامس: ركوع وسجود العقل أمام حقائق الملكوت العليا التي يدرك أنه لا ينالها فيشعر العقل بعظمتها وقصوره عن إدراكها فيركع ركوعاً عقلياً لا محالة.

---

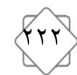
(١) الأنبياء: ٣٠.

(٢) الرعد: ٢٨.

وبنفس هذه المستويات نستطيع أن نصور حقيقة الصوم، فهناك:

صوم النفس، وصوم الروح، وصوم البدن، وصوم القلب، وصوم العقل، ولكل مستوى من هذه المستويات مفطراته الخاصة به، بل يمكن تصوير هذه المستويات الخمسة في جميع العبادات المذكورة في الشريعة الإسلامية لكننا اقتصرنا على ذكر الركوع والسجود والصوم طلباً للاختصار في هذا البحث الذي يدور حول حقيقة العبادة وأثرها على الوجود الإنساني.

وما دامت العبادة في حقيقتها هي ارتباط تكويني بين الإنسان وبين خالقه.. ينال من خلاله الإنسان كماله الحقيقي.. فهي ليست كعبادة الأوثان .. أو عبادة الأصنام الدنيوية.. وليس من الصحيح حينئذ أن يقال إن الإنسان خلق حراً.. والإسلام يريده أن يكون عبداً!! كلا.. بل العبادة في حقيقتها القرآنية هي الوصول إلى الكمال والحرية الحقيقية التي تحرر الإنسان من عبودية النفس والشهوات وإغواء الشيطان.. وعند الاتصال بمصدر الكمال الحقيقي سوف تتحطم جميع هذه القيود التي تريد أن تكبّل الإنسان وتقيده عن الوصول إلى حريته الحقيقية.. والعبادة في جوهرها مع الإنسان كحال الشجرة مع الماء.. إذ لا



يمكن أن نقول أن الشجرة تعبد الماء.. بل إن كمالها الحقيقي متوقف على الحصول على الماء.

● العبادة وعلاقتها بالأخلاق

لا شك أن بحث العبادة له آثار واسعة من الناحية القرآنية والعقائدية والأخلاقية والفقهية والاجتماعية والنفسية على حياة الإنسان.. ولكننا في هذه الفقرة من البحث نحاول أن نسلط الضوء على العلاقة بين العبادة والأخلاق وكيف أن العبادة بالمنظور القرآني تؤسس مذهباً أخلاقياً خاصاً يختلف عن المذاهب الأخلاقية المعروفة في الفكر الإنساني.. إذ من المعروف أن هناك اتجاهات متعددة ومختلفة في النظرية الأخلاقية عرفتها الشعوب والأمم على طول تاريخ الفكر الإنساني من أجل تحديد المناط في (أخلاقية) الفعل الإنساني.. أي كيف نعرف أن هذا الفعل أخلاقي وذاك الفعل غير أخلاقي.. ولعل هذا السؤال من الأسئلة المعقدة والمثيرة التي ظلت بحاجة إلى جواب شافٍ ووافٍ إلى يومنا الحاضر!

فهناك من يؤمن بأن (العاطفة) هي مناط السلوك الأخلاقي، وهي أقدم النظريات المفسرة للسلوك الأخلاقي، ومن المعلوم أن الأخلاق الهندية تقوم على نظرية (العاطفة)

بمعنى أن محورها هو العاطفة، وتقترب من ذلك أيضاً الأخلاق المسيحية التي تقوم على (المحبة) حسب ما يدعيه المتكلمون في الأخلاق المسيحية.

وهناك نظرية معروفة بين الفلاسفة المسلمين وهي أن الأخلاق ملاكها (العقل)، ومرادهم من ذلك أن يكون العقل هو الحاكم المطلق على قوى الإنسان الأخرى وهو المسيّر لها، أي يعطي كل قوة حقها بلا إفراط أو تفريط، وهناك نظرية أخرى تعتقد بأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوة خلاقة قادرة على إلهامه والإيماء له بما ينبغي فعله من الأعمال الحسنة، وهذه القوة ليست هي العاطفة، وليست هي العقل والإرادة، بل هي عبارة عن (الوجدان) وهي قوة نابعة من الفطرة، ويذهب إلى هذه النظرية الفيلسوف الألماني (كانت).

وهناك نظرية أخرى تربط الأخلاق بالجمال فالروح الإنسانية إذا هذبت ورُبّيت بحيث تتوازن قواها وقابلياتها بدون زيادة أو نقصان فستصبح جميلة وبالتالي تكون أخلاقية، وقد ذهب إلى هذه النظرية الفيلسوف اليوناني إفلاطون، فالجمال الروحي عنده هو تعادل الأخلاق والقوى الروحية والنفسية.. وهناك مناقشات كثيرة أوردت على هذه النظريات الأخلاقية

ليس محلها هذا البحث باعتبار أننا نريد التركيز على علاقة العبادة بالأخلاق حسب الموضوع الأساسي لبحثنا هذا.

● نسبية الأخلاق وإطلاقها

من النقاط الجوهرية في بحث الأخلاق والتي ينبغي الإشارة إليها قبل الدخول في بحث العبادة والأخلاق، هي مسألة نسبية الأخلاق وإطلاقها، فهناك مذهبان في هذه المسألة:

المذهب الأول: أن الأخلاق مطلقة بمعنى أن الفعل الأخلاقي لا يتغير بتغير الزمان والمكان ولا بتغير ظروف الحياة المدنية للإنسان، فالعدل حسن مطلقاً، وأداء الأمانة حسن مطلقاً، وهكذا في جميع الأفعال الأخلاقية.

المذهب الثاني: وهو ما يمكن استفادته من بعض الاتجاهات الفلسفية الحديثة، وهو نسبية الأخلاق، أي أن قيمة الفعل الأخلاقي تتغير من زمن إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، ومن مكان إلى آخر.. لأن الأخلاق ترتبط حسب هذا المذهب بحياة الإنسان المدنية، ومن المعلوم أن حياة الإنسان متطورة ومتغيرة عبر الزمان والمكان فتتغير الأخلاق تبعاً لذلك.. ولهذه النظرية نتائج خطيرة وحساسة في الحياة البشرية معرفياً وفكرياً وأخلاقياً واجتماعياً، لأن الأخلاق هي التي تحكم حياة الإنسان

فإذا كانت متغيرة بهذا الشكل سوف تحدث تغيراً هائلاً وخطيراً على مجمل هذه الحياة.. لكن مذهب نسبية الأخلاق مرفوض إسلامياً وقرآنياً كما هو ثابت في محله.. والصحيح هو أن الأخلاق مطلقة ولا يمكن للفعل الأخلاقي أن يتغير في جوهره بتغير الزمان والمكان والظروف المحيطة به[1]، ولكن كيف نثبت ذلك؟ هذا السؤال الجوهري هو الذي سينقلنا إلى بيان العلاقة الجوهرية بين موضوع العبادة وموضوع الأخلاق. وذلك من خلال تقسيم النظريات الأخلاقية تقسيماً آخراً غير ما ذكرناه فيما سبق لنخلص بعد ذلك إلى تحديد نقطة العلاقة بين العبادة والأخلاق في القسم الثالث الذي نسميه (المسلك القرآني في الأخلاق).. وقد جاء هذا التقسيم المهم في كلمات العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسير الميزان .. نذكره هنا مع بعض التعليقات والتوضيحات التي توصلنا إلى موضوع العبادة.

● مسالك تهذيب الأخلاق

أجمع علماء الأخلاق أن اكتساب الأخلاق الفاضلة وإصلاح النفس والوصول بها إلى مستوى الخلوص من الرذائل

---

(١) يراجع حول هذا الموضوع، كتابنا المجتمع الديني عند العلامة الطباطبائي، ص١٥٦ وما بعدها.

إنما يحصل من خلال مزاولة الأعمال الصالحة والمداومة عليها حتى تصبح ملكات عند النفس الإنسانية، لكن السؤال المهم في هذا المجال إنما هو عن معرفة الطريق لحصول الإنسان على هذه الملكة؟

وقد ذكروا لذلك مسلكين:

المسلك الأول: وهو المسلك الموروث عن الفلاسفة الأقدمين من حكماء اليونان الإلهيين والذي أسسوا عليه علم الأخلاق، ويتلخص في تهذيب النفس بالغايات الصالحة الدنيوية والآراء المحمودة عند العقلاء، وهو مذهب القبح والحسن والمدح والذم، بمعنى أن الشخص الذي يأتي بفعل حسن سوف يستحق عليه المدح في المجتمع العقلائي.. ومثاله أن العفة والقناعة والتنزه عما في أيدي الناس توجب العزة والعظمة والجاه الكبير عند العامة فتكون بذلك فضيلة أخلاقية، وبها تكتسب الأخلاق. ومن جهة أخرى فإن الشره يوجب الخصاصة والفقر، وإن الطمع يوجب ذلة النفس المنيعة، وإن العلم يوجب إقبال العامة والعزة والوجاهة والأنس عند الخاصة، وإن العلم بصر يتقي به الإنسان كل مكروه ويدرك كل محبوب، وأن الجهل أعمى، وأن العلم يحفظك، وأنت تحفظ

المال، وأن الشجاعة ثبات يمنع الناس عن التلون، والحمد من الناس على أي تقدير، سواء كان الإنسان غالباً أو مغلوباً، بخلاف الجبن والتهوّر، وأن العدالة راحة للنفس عن الهموم المؤذية وهي الحياة بعد الموت ببقاء الاسم وحسن الذكر وجميل الثناء والمحبة في القلوب.. وهكذا يكون الإنسان أخلاقياً بتهذيب نفسه بالغايات الصالحة الدنيوية كما في الأمثلة المذكورة.

ومن المعلوم أن القرآن الكريم لم يتخذ هذا المسلك في رؤيته الأخلاقية، بل هو مسلك مأثور من بحث فلاسفة اليونان الأقدمين.

المسلك الثاني: تهذيب النفس بالغايات الصالحة الأخروية، وهذا المسلك له أمثلة كثيرة نطق بها القرآن الكريم من خلال الآيات التي تحدثت عن الثواب العظيم والأجر الكبير الذي أعده الله عز وجل للمؤمنين والصالحين في الآخرة، وبسبب تلك الغايات والكمالات يصلح الإنسان أخلاقه ويهذب نفسه في هذه الدنيا، وهذا المسلك في إصلاح الأخلاق هو طريقة الأنبياء السابقين ومما نطق به القرآن أيضاً ونقلته الكتب السماوية السابقة.. ولا شك أنه مسلك إلهي في تهذيب الأخلاق.. فالإنسان الذي يفعل الأعمال الصالحة والحسنة ويبتعد عن

الذنوب والمعاصي سوف ينال كمالاً حقيقياً في عالم الآخرة لا محالة يتسبب إلى إصلاح أخلاقه بالمبادئ السابقة الحقيقية كالتخلق بأخلاق الله والتذكر بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3]، إلى غيرها من الآيات الدالة على هذا المسلك في تهذيب الأخلاق.

المسلك الثالث: وهو المسلك الذي اختصت به الرسالة الخاتمة وانفرد به القرآن الكريم في حقيقة تهذيب الأخلاق، وهو المسلك الذي يستند إلى العبادة أو الحب العبودي.. وفي هذه النقطة بالذات سيتضح لنا الارتباط الحقيقي بين العبادة وبين الفعل الأخلاقي. فإن محصل المسلكين السابقين هو كما يلي:

المسلك الأول: افعل الحسن لكي تحصل على المدح العقلائي والتعظيم الدنيوي.

المسلك الثاني: افعل الحسن وابتعد عن القبيح والمعصية

---

(١) التوبة: ١١١.

(٢) الزمر: ١٠.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

فتحصل على الثواب العظيم عند الله وهو كمال حقيقي. وحسب هذا المسلك فإن الذي يدفع الإنسان إلى جهة الفعل الحسن هو الثواب المرجوّ عند الله والذي يبعد الإنسان عن الفعل السيّئ هو العقاب الذي سنَّهُ الله في الآخرة للعاصين، وهذا يعني أن منشأ الفعل القبيح موجود في نفس الإنسان لكن الذي يمنعه من ذلك هو وجود العقاب الأخروي، وكذلك في جهة الفعل الحسن، فإن الثواب الأخروي هو الدافع عند الإنسان للأفعال الحسنة، ويمكن أن يقرب هذا المعنى بالحديث المنقول عن الإمام الصادقعليه السلام: أن العبادة فيها قسمان: عبادة العبيد، وعبادة التجار، فعبادة العبيد هي الخوف من النار والعقاب، وعبادة التجار هي الطمع في الجنة والثواب.. وأما المسلك الثالث الذي تبناه القرآن الكريم فهو الذي نستطيع أن نسميه حسب حديث الصادقعليه السلام: بعبادة الأحرار.. وهي أن الطاعة لله سبحانه وتعالى لا تصدر من الإنسان بسبب الخوف من العقاب أو الطمع في الجنة، كلا.. بل هو أن يصل الإنسان العابد إلى مرتبة من الكمال ترتفع فيها جميع مناشئ الرذائل من نفسه وتكون موضوعاً لمحاسن الأخلاق لا غير بغض النظر عن الثواب والعقاب، يقول السيد الطباطبائيقدس سره: وها هنا مسلك ثالث

مخصوص بالقرآن الكريم لا يوجد في شيء مما نقل إلينا من الكتب السماوية وتعاليم الأنبياء الماضين سلام الله عليهم أجمعين، ولا في المعارف المأثورة من الحكماء الإلهيين، وهذا المسلك هو تربية الإنسان وصفاً وعلماً باستعمال علوم ومعارف لا يبقى معها موضوع الرذائل، وبعبارة أخرى: إزالة الأوصاف الرذيلة بالرفع لا بالدفع!!

بمعنى أن المسلك الثاني يزيل عنك الأوصاف الرذيلة بالدفع، أي يدفعها عنك من خلال العقاب، لكن مقتضي الرذيلة يبقى موجوداً في نفس الإنسان وأما المسلك الثالث فإنه يرفع الأوصاف الرذيلة من خلال رفع موضوعها من النفس، وهذا المسلك مستند إلى العبودية، لأن الإنسان إذا ارتبط بالله سبحانه وتعالى من خلال العبودية وأنه عبد مملوك حقيقة وتكويناً لله سبحانه فإنه سوف لا يفكر بالمعصية أصلاً فضلاً عن أن يفعلها لأن موضوع المعصية والذنب غير موجود في قلبه ونفسه، ويكون الحال حسب تعبير المناطقة من السالبة بانتفاء الموضوع، لأن النفس تكون طاهرة معتصمة بالطهارة الإلهية وتكون أرضاً للطيبات والحسنات لا غير.

ولذلك يقول الطباطبائي قدس سره: كل فعل يراد به غير الله

سبحانه وتعالى فالغاية المطلوبة منه إما عـزة في المطلـوب يطمـع فيها، أو أنه يخاف منها ويحذر منها، لكن الله يقول: ﴿إِنَّ الْعِـزَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾[1] والتحقق بهذا العلم لا يبقى موضوعاً لريـاء أو سـمعة ولا خوف من غير الله ولا رجـاء لغـير الله ولا ركـون لغـير الله! فهاتان القـضيتان إذا صـارتا معلـومتين للإنـسان تغـسلان كـل ذميمة وصفاً أو فعلاً عن الإنسان وتحلّيان نفسه بحلية بها يقابلها من الصفات الكريمـة الإلهيـة، مـن التقـوى بـالله والتعـزُّز بـالله وغيرهما من منعة وكبرياء واستغناء وهيبة إلهية ربانية، وأيضاً قد تكرر في كلامه تعالى: ﴿الْمُلْـكُ يَوْمَئِـذٍ للهِ﴾[2] وقولـه: ﴿لَهُ مُلْـكُ الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] وقولـه: ﴿لَهُ مَـا فِي الـسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4] وحقيقة هذا الملك كما هو ظاهر لا تبقي لـشيء مـن الموجـودات استقلالاً من دون الله أو استغناءً عنه بوجه من الوجوه، فلا شيء إلا وهو سبحانه المالك لذاته ولكل ما لذاته، وإيمان الإنسان بهذا الملك وتحقق الإنسان به يوجب سقوط جميع الأشياء ذاتاً ووصفاً وفعلاً عند الإنـسان عـن درجـة الاسـتقلال، فهـذا الإنـسان لا

---

(١) يونس: ٦٥.

(٢) الحج: ٥٦.

(٣) الزمر: ٤٤.

(٤) البقرة:١١٦.

يمكنه أن يريد غير وجه الله سبحانه، ولا أن يخضع لشيء أو يخاف أو يرجو شيئاً، أو يلتذ أو يبتهج بشيء أو يركن إلى شيء أو يتوكل على شيء أو يسلم لشيء غير وجهه تعالى، وبالجملة لا يريد ولا يطلب شيئاً إلا وجه الحق الباقي بعد فناء كل شيء، ولا يعرض ولا يهرب إلا عن الباطل الذي هو غير الله!!

ولا يعبأ قبال الحق الذي هو وجود بارئه جل شأنه، وكذلك قوله تعالى: ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[1] وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2] وقوله: ﴿وَعَنَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[3] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[4] وقوله: ﴿أَلاَ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[5]. فإن هذه الآيات وأمثالها مشتملة على معارف خاصة إلهية ذات نتائج خاصة حقيقية لا تشابه تربيتها نوع التربية التي يقصدها حكيم أخلاقي ولا تشابه نوع التربية التي سنها الأنبياء في شرائعهم، فإن المسلك الأول كما عرفت

---

(١) طه:٨.

(٢) الأنعام:١٠٢.

(٣) طه: ١١١.

(٤) فصلت: ٥٣.

(٥) فصلت: ٥٤.

مبني على العقائد الاجتماعية في الحسن والقبح، والمسلك الثاني مبني على العقائد الدينية في التكاليف ومجازاتها - الثواب والعقاب- وهذا المسلك الثالث مبنى علي التوحيد الخالص الكامل الذي يختص به الإسلام على مشرعه وآله أفضل الصلاة والسلام وقد أهدى هذا المسلك إلى المجتمع الإنساني جمعاً غفيراً من العباد الصالحين والعلماء الربانيين والأولياء المقربين رجالاً ونساءً وكفى بذلك شرفاً للدين[١].

وهناك فرق آخر بين هذا المسلك الثالث وبين المسلكين السابقين في تهذيب الأخلاق بحسب النتائج المترتبة عليهما، فإن بناء المسلك الثالث على الحب العبودي الناشئ من العبودية الحقيقية وإيثار جانب الرب على جانب العبد، ومن المعلوم أن الحب والوَلَه والتَّيم ربما يدلون الإنسان المحب على أمور لا يستصوبها العقل الاجتماعي الذي هو ملاك الأخلاق الاجتماعية، ولا يصححها الفهم العام العادي عند الناس الذي هو أساس التكاليف العامة الدينية، فإن للعقل أحكام، وللحب أحكام[٢]!!

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٥١-٣٥٧.

(٢) نفس المصدر.

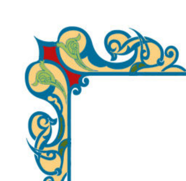
لأن الإنسان على المسلك الثاني يعمل الحسن لكي يطلب الجنة لنفسه، ويبتعد عن القبيح لكي يبعد النار والعذاب عن نفسه، فهو يؤثر جانب نفسه لا جانب ربه!! ولعل من الأمثلة التي تقرب هذا المسلك ما قاله نبي الله يوسف عليه السلام عندما واجه ذلك الموقف مع امرأة العزيز زليخا.. عندما راودته عن نفسه.. فلم يقل إني لا أفعل الفاحشة خجلاً من الناس والعيب الاجتماعي.. ولم يقل أنه إني أخاف العقاب بل قال كلمة واحدة ناشئة من الحب العبودي .. وهي: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي!! ولذلك قال الله تعالى في حقه: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾[1].. والمخلَص أي الطاهر من كل شوب.. ولا يوجد في قلبه وباطنه ونفسه غير النور الإلهي.

وفي ضوء هذا المسلك الثالث المستند إلى الحب العبودي تظهر حقيقة الفعل الأخلاقي وجوهره.. لأن العبادة في حقيقتها هي شيء موجود في عمق فطرتنا.. وهي جزء من وجودنا الحقيقي الذي يربطنا بالله سبحانه وتعالى.. وهي شيء أعظم من وجودنا المادي المحسوس في هذا العالم، نعم إذا أردنا إظهار

---

(١) يوسف:٢٤.

العبادة في هذا العالم نقول: (سبحان ربي العظيم وبحمده) و (سبحان ربي الأعلى وبحمده) أو (الله أكبر) أو من خلال السجود والركوع والصوم وغيرها من مظاهر العبادة الشرعية، فالعبادة هي تقديس الكمالات، وهي خروج من دائرة الذات المحدودة الضيقة والانطلاق والعروج إلى الكمال المطلق، لأن العبادة لجوء وانقطاع واستغاثة واستنجاد بالمعبود المحبوب.. وهي تحرُّر من الأنا وعبادة الذات والأماني المحدودة، وهذا هو معنى التقرُّب إليه سبحانه وتعالى، ونحن عندما نصلي (قربةً إلى الله) فليس ذلك لمجرد المجاملة.. بل الإنسان المصلي هو في حالة عروج واقعية نحو الحق والكمال اللامتناهي. وقد ذكرنا في بحوث سابقة أن العبادة بهذا المعنى ليست مختصة بالإنسان بل هي حقيقة ثابتة في جميع موجودات هذا العالم.



المبحث الرابع عشر

• حقيقة العبادة وختم النبوة

قلنا أن المسلك الثالث من مسالك تهذيب الأخلاق يرتكز على الحب العبودي، ومن هنا ارتبط موضوع العبادة بالبحث الأخلاقي، وذكرنا أيضاً أن هذا المسلك مما اختصت به الرسالة الخاتمة.. وعليه يعتبر هذا البحث من فروع بحث ختم النبوة.. إذ أن هناك سؤالاً جوهرياً مطروحاً في المعرفة الدينية وهو: لماذا ختمت النبوة التشريعية؟ ولم يستمر إنزال الرسالات السماوية إلى يوم القيامة؟

وجواب ذلك مختصراً: لأن هذه الرسالة الخاتمة جاءت بمنهج أو طريق يوصل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بأعلى درجات القرب والزلفى، بحيث لا يمكن لأي منهج أو طريق آخر القدرة على إيصال الإنسان لمنزلة القُرب الإلهي كما يوصله المنهج المحمدي الخاتم المستند إلى حقيقة (الحب العبودي) لأنَّه يوحِّد مسيرة الإنسان نحو هدف واحد وهو الحق سبحانه وتعالى وليس بعد الحق شيء! لكي تأتي رسالة سماوية أخرى تدعو إلى

هذا الشيء، فهذه الرسالة الخاتمة على مشرعها والمرسل بها آلاف التحية والصلوات جاءت بهذه الدرجة العظيمة من العبودية، لأن الذي تكفّل أن يأتي بها على درجة عظيمة من القرب الإلهي بحيث لا يوجد أعظم منه عبوديةً وقرباً لله عز وجل، فهو العبد الحقيقي الأوحد ولذلك كان خاتمهم وأعظمهم وأكرمهم منزلة عند الله سبحانه.

واستناداً لذلك أيضاً سوف تكون النبوة الخاتمة مهيمنة ومسيطرة ومحيطة بالكتب السماوية السابقة، لأن الكتب السماوية السابقة إنما هي رسالات سماوية جاءت بحسب درجات الأنبياء والمرسلين وقُربهم الإلهي، بحيث أن كل نبي أو رسول يتكلم في رسالته بقدر معرفته بالله عز وجل.. أما الرسالة الخاتمة فهي مهيمنة على ما سبقها لأن المرسل بها محيط ومهيمن على كل معارف الأنبياء الذين سبقوه بحسب مقام عبوديته لله سبحانه، ويترتب على ذلك أيضاً أن خليفة هذا النبي الخاتم، وخلافة النبوة الخاتمة تكون حاملة لهذه الدرجة من المعرفة الإلهية وبالتالي تكون مهيمنة أيضاً على الرسالات السماوية السابقة ويكون الخليفة الحقيقي للنبي الخاتم أفضل من الأنبياء السابقين، ولذلك نقرأ في الزيارة المعروفة للإمام الحسين عليه السلام: السلام

عليك يا وارث آدم صفوة الله.. السلام عليك يا وارث نوح نبي الله .. السلام عليك يا وارث موسى كليم الله.. السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله .. السلام عليك يا وارث عيسى روح الله.. السلام عليك يا وراث محمد حبيب الله..

فهذه الوراثة في المعرفة الإلهية.. أي أننا عندما نقف أمام الحسين عليه السلام فلا بد أن ندرك أننا أمام جميع علوم ومعارف الأنبياء والمرسلين جميعاً.. وأن معسكر الحسين يمثل الجبهة الإلهية وفسطاط السماء والأنبياء والرسل لأنه وارثهم بالوراثة الحقيقية التكوينية.. ومن هنا قيل إن الإسلام حسيني البقاء، لأن الحسين عليه السلام حفظ هذه الدرجة العظيمة التي تمثل أعظم درجات القرب الإلهي بل تمثل حصيلة معارف الرسالات السماوية جمعاء، وهي أعظم مشهد للتوحيد الإلهي حدث في هذا العالم.

● مناقشة بعض المستشرقين للأحكام الأخلاقية في الإسلام

ذهب بعض المستشرقين الذين بحثوا في الفكر الإسلامي إلى أن الفائدة الواضحة من الدين الإسلامي هي ما جاء به من التمدُّن والتحضُّر وبعض العلوم الإنسانية التي استفادت منها الحضارة البشرية، وأما من ناحية الأحكام والأخلاق الدينية فإن الإسلام لم يأتِ بشيء جديد يختلف عن الرسالات السماوية

السابقة! وفي ضوء المسلك الأخلاقي الذي ذكرناه في البحوث السابقة نستطيع الإجابة عن هذا الإشكال، لكن العلامة الطباطبائي أعلى الله مقامه يجيب عن ذلك بهذا الجواب:

(فإن تعجب فعجبٌ قول بعض المستشرقين من علماء الغرب في تاريخه الذي يبحث فيه عن تمدُّن الإسلام، وحاصله: أن الذي يجب للباحث أن يعتني به هو البحث عن شؤون المدنية التي بسطتها الدعوة الدينية الإسلامية بين الناس من متبعيها، والمزايا والخصائص التي خلفها وورثها فيهم من تقدم الحضارة وتعاليم المدنية، وأما المعارف الدينية التي يشتمل عليها الإسلام فهي مواد أخلاقية يشترك فيها جميع النبوات، ويدعو إليها جميع الأنبياء!

وأنت بالإحاطة بما قدمناه من البيان تعرف سقوط نظره ضبط رأيه، فإن النتيجة فرع لمقدماتها، والآثار الخارجية المترتبة على التربية! إنما هي مواليد ونتائج لنوع العلوم والمعارف التي تلقاها المتعلم المتربي، وليس سواء قول يدعو إلى حق نازل وكمال متوسط، وقول يدعو إلى محض الحق وأقصى الكمال، وهذا حال المسلك الثالث، فأول المسالك يدعو إلى الحق الاجتماعي، وثانيها يدعو إلى الحق الواقعي والكمال الحقيقي، الذي فيه سعادة

الإنسان في حياته الآخرة، وثالثها يدعو إلى الحق الـذي هـو الله، ويبني تربيته عـلى أن الله سـبحانه واحـد لا شريـك لـه، وينـتج العبودية المحضة وكم بين المسالك من فرق!!

فإن غاية الاسـتكمال الخلقـي في المـسلك الأول الفـضيلة المحمودة عند الناس، والثناء الجميـل مـنهم، وغايـة الاسـتكمال الخلقي في المسلك الثاني السعادة الحقيقية للإنسان وهو اسـتكمال الإيمان بالله وآياتـه، والخـير الأخـروي وهـي سـعادة وكـمال في الواقع لا عند الناس فقط، ومع ذلك فالمـسلكان يـشتركان في أن الغاية القصوى والغـرض فيهـا الفـضيلة الإنـسانية مـن حيـث العمل.

وأما المسلك الثالث فيفارقهما بأن الغرض فيه وجـه الله لا اقتناء الفضيلة الإنسانية ولذلك ربما اختلفت المقاصـد التـي فيـه مع ما في المسلكين المتقدمين.

بيان ذلك: إن العبد إذا أخـذ إيمانـه بالاشـتداد والازديـاد انجذبت نفـسه إلى التفكـير في ناحيـة ربـه، واستحـضار أسـمائه الحسنى، وصفاته الجميلة المنزهة عن النقص والـشّين، ولا تـزال تزداد نفسه انجذاباً، وتترقى مراقبـة، حتـى صـار يعبـد الله كأنَّـه يراه، وأن ربه يراه، ويـتجلى لـه ذلـك في مجـالي الجذبـة والمراقبـة

والحب، فيأخذ الحب بالاشتداد لأن الإنسان مفطور على حب الجميل، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً للهِ﴾[1] وصار يتبع الرسول في جميع حركاته وسكناته لأن حب الشيء يوجب حب آثاره، والرسول من آثاره وآياته، كما أن العالم أيضاً من آثاره وآياته تعالى، ولا يزال يشتد هذا الحب ثم يشتد حتى ينقطع إليه من كل شيء ولا يحب إلا ربه، ولا يخضع قلبه إلا لوجهه، فإن هذا العبد لا يعثر بشيء، ولا يقف على شيء وعنده شيء من الجمال والحسن إلا وجد أن ما عنده أنموذج يحكي ما عنده من كمال لا ينفد وجمال لا يتناهى وحسن لا يحدّ، فله الحسن والجمال والكمال والبهاء، وكل ما كان لغيره فهو له، لأن كل ما سواه آية له، ليس له إلا ذلك، والآية لا نفسية لها، وإنما هي حكاية تحكي صاحبها، وهذا العبد قد استولى سلطان الحب على قلبه، ولا يزال يستولي، ولا ينظر إلى شيء إلا لأنه آية من آيات ربه، وبالجملة فينقطع حبه عن كل شيء إلا ربه، فلا يحب شيئاً إلا لله سبحانه وفي الله سبحانه.

وحينئذ يتبدل نحو إدراكه وعمله فلا يرى شيئاً إلا ويرى الله سبحانه قبله ومعه، وتسقط الأشياء عنده من حيّز

(١) البقرة: ١٦٥.

الاستقلال، فما عنده من صور العلم والإدراك غير ما عند الناس لأنهم إنما ينظرون إلى كل شيء من وراء حجاب الاستقلال، هذا من جهة العلم، وكذلك الأمر من جهة العمل فإنه إذا كان لا يحب إلا الله فلا يريد شيئاً إلا لله وابتغاء وجهه الكريم، ولا يطلب ولا يقصد ولا يرجو ولا يخاف ولا يختار ولا يترك ولا ييأس ولا يستوحش ولا يرضى ولا يسخط إلا لله وفي الله، فتختلف أغراضه مع ما للناس من أغراض وتتبدل غاية أفعاله، فإنه قد كان إلى هذا الحين يختار الفعل ويقصد الكمال لأنه فضيلة إنسانية، ويحذر الفعل أو الخلق لأنه رذيلة إنسانية، وأما الآن فإنما يريد وجه ربه، ولا هم له في فضيلة ولا رذيلة، ولا شغل له بثناء جميل وذكر محمود، ولا التفات له إلى دنيا أو آخرة أو جنة أو نار، وإنما همه ربه، وزاده ذلّ عبوديته، ودليله حبه)[1].

• علاقة الحب بين الله والإنسان

عرفنا أن درجة العبودية الحقيقية التي تمثل أعلى درجات القرب والكمال عند الله سبحانه تستند إلى الحب.. ومن هنا نجد القرآن الكريم بكونه الرسالة الخاتمة قد استعرض علاقة الحب بين الله وبين الإنسان من خلال تركيز مكثف في عشرات الآيات

(١) الميزان في تفسير القرآن: ج١، ص٣٦٨-٣٧٢.

المباركة التي تحدثت عن الحب.. ويظهر منها أن المقصد الأعلى لله هو أن يرتبط به الإنسان بعلاقة الحب دون العلاقات الأخرى.. ولكنه الحب العبودي المستند إلى طلب الكمال والسعادة الحقيقية عند الحق عز اسمه.

فالإنسان عندما يحب الله وجودياً سوف يطلب الله وجودياً لكي يبقى في دائرة الوجود.. فيتحقق الحب التكويني ثم يتبعه الحب العبودي.. فإذا أحبه لا يعصيه.. ولا يخالفه أصلاً.. لأن الحب يمنعه من ذلك.. كما أننا لو احتملنا أن التدخين يضر شخصاً نحبه فإننا نمتنع عن التدخين من تلقاء أنفسنا لوجود ذلك الاحتمال.. والمانع هو الحب لا شيء آخر.. ومن خلال علاقة الحب سوف يكون للتكاليف الشرعية عموماً معنى آخر.. فالمحرمات سوف نمتنع عن ارتكابها لأننا نحب الله.. والواجبات نأتي بها لأننا نحب الله.. وهكذا.. ومن المعلوم أن علاقة الحب تفني الإنسان أمام المحبوب بالرغم من اختلاف درجات الحب من شخص إلى آخر.. وكل إنسان محب وله محبوب.. ولكننا نختلف في أنواع المحبوب.. البعض يحب المال.. أو الشهرة.. أو المركز الاجتماعي.. أو الرياضة.. أو شخصية معنية.. ولا يمكن للإنسان أن يعيش بدون حب.. أنظر مثلاً

بعض التجار وأصحاب الأموال عندما يخسرون في تجارتهم أو عندما تهبط قيمة العملة نرى بعضهم يموت أو يصاب بسكتة قلبية مثلاً؟!! لماذا؟ لأنه فقد محبوبه!! وهذا الحال عند أولياء الله المحبون لله سبحانه.. فإن موتهم الحقيقي وهلاكهم بمفارقة المحبوب الحقيقي عز اسمه.. إذا تحقق حب الله عند الإنسان تنتفي معه جميع السيئات والمعاصي لأن الله سبحانه هو مركز الكمال المطلق الذي يستحق الحب الحقيقي.. يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: (هبني صبرت على حر نارك، فكيف أصبر على فراقك؟!) لأن العذاب الحقيقي في نظر أمير المؤمنين عليه السلام هو فراق المحبوب وليس نار جهنم!! ومن هنا تحدث القرآن الكريم عن الطوائف التي يحبها الله تعالى والطوائف التي لا يحبها.. فقال في الأولى:

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2].

﴿فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

---

(١) البقرة:١٩٥.

(٢) البقرة: ٢٢٢.

(٣) آل عمران: ٧٦.



﴿وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢].

﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

وقال في الطائفة الثانية الذين لا يحبهم الله:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٤].

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[٥].

﴿وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[٦].

﴿فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[٧].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[٨].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾[٩].

---

(١) آل عمران: ١٤٦.

(٢) آل عمران: ١٥٩.

(٣) الحجرات:٩.

(٤) البقرة:١٩٠.

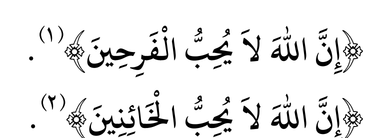
(٥) البقرة:٢٠٥.

(٦) آل عمران:٥٧.

(٧) آل عمران:٣٢.

(٨) النساء: ٣٦.

(٩) النساء: ١٠٧.



﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾[٢].

إن الذين لا يحبهم الله ليس هم المختلفون معك في شكل العبادة أو المذهب أو القومية أو الفكر.. بل هم حسب الآيات الكريمة المفسدون والمعتدون والظالمون وأهل الخيانة والتكبر..

ثم قال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾[٣]، فعلامة الحب الإلهي هي اتباع النبي الخاتمصلى الله عليه وآله.

وقال تعالى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٤].

وللمحبة والحب أبحاث موسّعة في المعرفة الإلهية لا يسعها مقام البحث في موضوع العبادة، والمهم هنا أن (الحب والمحبة الإلهية) مبدأ قرآني يؤسّس لجوهر العلاقة التي لا بد أن تتحقق بين الإنسان وبين الله سبحانه.

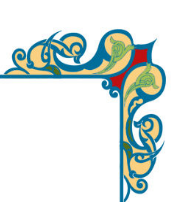
---

(١) القصص:٧٦.

(٢) الأنفال:٥٨.

(٣) آل عمران:٣١.

(٤) المائدة:٥٤.



الفهرس

المبحث الأول



المبحث الثاني

المبحث الثالث

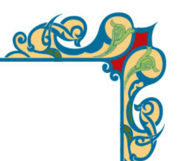
المبحث الرابع

المبحث الخامس



المبحث السادس

المبحث السابع



المبحث الثامن

المبحث التاسع

المبحث العاشر



المبحث الحادي عشر

المبحث الثاني عشر

المبحث الثالث عشر

المبحث الرابع عشر